





المشروع القومي للترجمة

العالم البرجوازي الزائل

تأليف: نادين جورديمر
ترجمة: سمير عبد ربه

343

المشروع القومى للترجمة

العالم البرجوازى الزائل

(رواية)

تأليف : نادين جورديمر
ترجمة : سمير عبد ربه



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد ٣٤٣
- العالم البرجوازى الزائل
- نادين جورديمر
- سمير عبد ربه
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لرواية :
The Late Bourgeois World
تأليف : Nadine Gordimer
الصادرة عن : Penguin Books
1966

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت : ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E.Mail** : asfour@onebox.com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

تقديم

الرواية فى جنوب أفريقيا

- إن تعدد الأجناس والثقافات بالإضافة إلى تسلط الأقلية البيضاء التى تنتهج سياسة التمييز العنصرى (الأبارتايد) يجعل الحديث عن الإبداع فى جنوب أفريقيا بشكل عام - وعن الحركة الروائية بشكل خاص - مختلفاً بعض الشئ عن مثيله عند بقية الشعوب؛ إذ تشكل هذه المنطقة من العالم مرتعاً خصباً للمبدعين، لما تموج به من تناقض غريب وصراع مرير، وأيضاً لغياب الحد الأدنى من الحرية التى تغذى الكتابة والفن .

عرف الغزاة البيض من البريطانيين والهولنديين طريقهم إلى جنوب أفريقيا فى النصف الأخير من القرن السابع عشر مع بداية الحركة التجارية عبر الطرق الساحلية، وسرعان ما استقروا فى المنطقة وقد أطلق الهولنديون على أنفسهم اسم «البوير» (*) Boer للفصل بينهم وبين أمثالهم من البيض البريطانيين وفى عام ١٨٠٦ استولى البريطانيون على مدينة كيب بالقوة من البوير فورثوا السلطة وسيطروا على ٨٠.٠٠٠ من السكان يمثل البيض منهم ٢٦،٠٠٠ فقط .

* البويرى Boer : شخص جنوب أفريقى من أصل هولندى وجمعها بوير

ومنذ الاحتلال البريطانى حتى منتصف القرن التاسع عشر كان البريطانيون والبوير يتعايشون معاً فى جو من الشك المتبادل نظراً لطموحات كليهما السياسية والثقافية المختلفة، فانعكس ذلك على السكان الأصليين حيث ساد مزيد من القهر العسكرى والنهب الاقتصادى. ومع اكتشاف الثروة المعدنية عام ١٨٧٠ حدث تحول كبير فسادت الرأسمالية وبالتالى تفاقمت حدّة الصراع بين البريطانيين والبوير حتى نشبت الحرب بينهما فى مطلع هذا القرن فأصبح النظام السياسى فى البلاد أكثر تعقيداً وحينئذ أطلق البوير على أنفسهم اسم أفريكان(*) Afrikaner طمعاً فى تحقيق السيادة على المجموعات الأخرى .

وفى النهاية نجحت حكومة الأقلية البيضاء فى وضع السود والملونين - الذين يتطلعون نحو الحرية - تحت مظلة الاستعباد والسيطرة.

- بعد هذه الإطلالة التاريخية الموجزة والتى تعد مدخلاً ضرورياً للحديث عن الأدب والرواية فى جنوب أفريقيا نجد أن الروائيين فى تلك الفترة كانوا يكتبون عن النباتات والحيوانات الموجودة فى المنطقة بطريقة شبه علمية وفى أحسن الأحوال لم تكن أعمالهم تتجاوز تلك الحكايات الرومانسية التقليدية الخالية من المضمون والمعنى كما فى رواية «كارى هوبسون» المكتوبة عام ١٨٩٧ بعنوان «عبيد أو لاعبيد» والتى تتناول قصة فتاة من العبيد ينتهى بها الأمر إلى أن تصبح وريثة لأحد الرجال البرتغاليين .. كذلك رواية «آرن بيج» الصادرة فى نفس العام بعنوان «انطلاقة بعد الظهر Anafternoon Ride» وتحكى عن بطل وبطلة من الفيكتوريين(*) الفخورين بنفسيهما وعندما يحب

(*) أفريكانى Afrikaner : شخص جنوب أفريقى من أصل أوربى (المترجم)

(*) ڤيكتورى : أحد أبناء عصر الملكة فيكتوريا (١٨٣٧ - ١٩٠١) (المترجم)

كلاهما الآخر يواجهان عقبات كثيرة، يستطيعان - بفعل قوة الحب - أن يتغلبا عليها فى النهاية .

لكننا حين ننتقل إلى البدايات الأولى من القرن العشرين وبالتحديد عام ١٩٠٠ نجد أن حرب الأنجلو - بوير أو حرب الأفريكان قد أثرت قليلاً فى تطور الرواية بجنوب أفريقيا فنرى الكاتب «هاروldبلور» فى روايته «الفارس الماهر **An Imperial Light Horseman**» يصف الهجرة الجماعية من جوهانسبرج إلى ناتال وذلك الحصار الناتج عن الحرب ولكن بطريقة سردية وواقعية دون أن يتوفر فى الرواية أى محاولة من محاولات الخلق تماماً كما حدث فى رواية «ستيف الغريب **Stive The outlander**» للروائى «آرثرليكوك» الصادرة أيضاً عام ١٩٠٠ .

يأتى بعد ذلك «أوليف شرينر» (١٨٥٥ - ١٩٢٠) و «بولاين سميث» (١٨٨٣ - ١٩٥٩) فتتسم الرواية على أيديهما بروح الخلق والإبداع حتى نصل إلى مرحلة النضوج الروائى فى الفترة ما بين الحرب العالمية الثانية ونهاية الستينيات والتى ما تزال تواصل نضجها حتى الآن وبشكل أكثر تفرداً خاصة بعد أن ترسخت أقدام حكومة الأقلية البيضاء التى كان من نتائجها ظهور الحركات النضالية من أجل المساواة والتحرر فاتجه الكتاب فى أعمالهم إلى مناهضة سياسة التمييز العنصرى (الأبارتايد) والتنديد بالأفريكان والمطالبة بحق السود فى حياة كريمة كما فى رواية «آلان باتون» (بكاء الوطن المحبوب **Cry The beloved country**) ١٩٤٨ ورواية (الفالاروب المتأخر(*) **Too late phalarope**) ١٩٥٣ ثم أعمال الراوئى «جاك كوب» وأهمها :

- (الطائر الذهبى **The Golden bird**) ١٩٥٨

(*) الفالاروب : طائر صغير يعيش على الشواطىء (المترجم)

- (الطريق إلى يستربرج The Road the yesterberg) ١٩٥٩
- (صانع المطر The Rainmaker) ١٩٧١

وأخيرا (طالب زند The Student of Zend) ١٩٧٢

بالإضافة إلى كثير من الروايات السابقة واللاحقة التى نحاول أن نتعرض لأهمها وأكثرها تعبيراً عن ذلك المناخ المتفرد والصاخب الذى تموج به جنوب إفريقيا والذى لم يجد فيه المبدعون سوى الرواية وسيلة للتعبير عن قضاياهم إذ إن الأشكال الأدبية الأخرى قد لا تسعفهم فى التعبير عنها بطريقة مشبعة. والجدير بالذكر أن تلك الروايات فى معظمها وإن لم تكن جميعها تتسم بالاحتجاج والرفض الكامل لمختلف أشكال القهر والعنصرية مع الحلم الكبير بوطن حر مستقل .

- نبدأ بالكاتبة الروائية «بيسى هيد Bessie Head» التى قالت قبل نشر أى رواية لها : إذا كان لابد أن أكتب فى يوم ما فإننى سأقول دائماً إن البشر هم البشر دون اعتبار للون بشرتهم.

وهكذا نتعرف منذ البداية على مشاغلها والقضية التى تؤرقها وسط جو زاخر بالتفرقة بين الناس على أساس اللون .

ولدت «بيسى هيد» فى مدينة (بيترمارتيزبورج) عام ١٩٣٧ من أصل مختلط ثم انتقلت إلى كيب تاون حيث عملت بالتدريس والصحافة وتعيش الآن فى بتسوانا وفرانسيس تاون مع ابنها .

كتبت أول رواية لها تحت عنوان : عندما تتجمع السحابات المطرة when rain clouds gatter ومثل كل أعمالها اللاحقة فإن تجربتها الشخصية تسيطر على مسار الرواية فنرى «ماكايا سيكو» الذى يغادر جنوب إفريقيا إلى بتسوانا بعد تورطه فى نشاط سياسى مناهض للحكومة، وتلك المعاناة التى يلقاها السود وردود أفعالها عليهم كما فى حديث «ماكايا» إلى صديقته القديمة : (هل تفهمين من أكون ؟.. إننى ماكايا الكلب الأسود الذى تقذف به الحياة .. إن

الحياة مزيج من العذاب والألم وقد لا تكون شيئاً على الإطلاق حتى أنني لا أرغب فى محاولة فهمها.)

ثم يحاول تفسير معنى الكلب الأسود فيقول : (إنه مجرد إحساس .. إن أولئك البيض معتادون على سلوكنا الغريب وحين نرتجف من سياطهم ويصيبنا الفزع تنتابهم سعادة بالغة لأننا بالنسبة لهم لسنا سوى كلاب سوداء على هيئة بشر .. إنهم يضحكون علينا وعندما نتحول إلى كلاب مجنونة يضحكون بصوت أعلى.)

لم تستطع صديقته المسيحية الطيبة أن تفهم شيئاً مما قاله فقد كانت واحدة من الذين عاشوا حياتهم داخل جلدهم الأسود فى هدوء، فقالت لتخفيف حدة الكراهية لديه : (أنت لست كلباً أسود ولا يجب أن يخدعوك بضحكاتهم .. إننى لا أعرف أولئك الناس البيض لكن إيمانى علمنى أن الحياة عبارة عن حريق كبير يولد فيه الناس أجمعين إلى أن يحين موعد إغلاق المحل.)

فى الروايتين التاليتين «مارو **Maru**» و «مسألة قوة **Aquestion of Power**» تأخذ السيرة الذاتية شكلاً أعمق فنرى «مارجريت» فى رواية «مارو» تنتمى مثل «بيسى هيد» إلى مجموعة الأقلية المضطهدة وحين تعرض على صديقها «ديكيليدى» بعض رسوماتها فإنه يسألها : كيف رسمت كل هذا ؟

فتقول المؤلفة : (استدارت مارجريت وابتسمت إذ لم يكن بمقدورها أن تشرح له عذاب تلك الأيام)

ثم تستطرد : (لقد تعلمت مارجريت الرسم لأن شيئاً ما بداخلها كان أكثر قوة من قدرة جسدها على الاحتمال .. لقد تعلمت الرسم من أجل أن تحتمل ومن أجل أن تكبح عواطفها طمعاً فى حياة يمكن احتمالها.)

وعندما يتزوج الشاب «مارو» من «مارجريت» يعد ذلك انتصاراً

عرقياً غير أن الناس فى قرية «مارو» يعبرون عن رفضهم لذلك الزواج المختلط، ويتحدثون عن «مارو» وكأنه قد مات ثم تشرح العاهرة المريضة «ديليب» موقفهم وتقول : (إنها مجرد نزوة !!)

بينما يرى أهل «مارجريت» وقبيلتها أن الباب قد انفتح بهدوء على حجرة صغيرة مظلمة خالية من الهواء كانوا يعيشون فيها منذ زمن بعيد وأن رياح الحرية تدفقت داخل الحجرة وتستطرد «هيد» حتى تقول : (لقد استيقظت إنسانيتهم.)

إن «بيسى هيد» التى ترفض كل مايحدث فى جنوب أفريقيا وتحلم بالتغيير عن طريق تبادل الحب بين الأجناس البشرية ترى فى ذلك الزواج طريقة للعيش بين الناس فى سلام بعيداً عن لون بشرتهم.

أما فى رواية «سبيل القوة» فإن «إليزابيث» لا تختلف كثيراً عن «بيسى هيد» نفسها فهى أيضاً تعمل بالتدريس وتشتغل بالسياسة ونرى «إليزابيث» وقد غادرت جنوب أفريقيا فى الرواية كما فعلت «هيد» فى الواقع، كما أنها تعانى من حالة اغتراب شديد وإحساس بفقدان الجذور وتعبر المؤلفة عن ذلك فى بداية الرواية على لسان «سيلو» : (إننى مجرد أى شخص).

إن رواية «سبيل القوة» تعد من أنضج أعمال «هيد» ففيها - رغم التشابه الذى أشرنا إليه - تتحرر من عبء السيرة الذاتية والسرد الوقائعى لحياتها وتستخدم الرمز وتنتقل إلى شخصيات أخرى تمثل مختلف القضايا الأخرى.

- قبل التعرض للكاتبة «نادين جورديمر» صاحبة هذه الرواية التى بين أيدينا تجدر الإشارة إلى أنها ليست الكاتبة الأفريكانية الوحيدة التى تناولت فى أعمالها مختلف أشكال القهر والعنصرية وإنما هناك أعمال قصصية وروائية وشعرية ومسرحية مختلفة لمبدعين آخرين من البيض تناولت نفس الأفكار والوقوف إلى جانب

السود والتعاطف مع قضيتهم ورفض سياسة التفرقة العنصرية ورغم أن نادين جورديمر - بعد حصولها على جائزة نوبل عام ١٩٩١ - قد أصبحت أبرز أولئك الكتاب فى الساحة الأدبية إلا أن القارئ المحايد يجد صعوبة فى إدراك ما ترمى إليه كما أنه لا يشعر بعد قراءتها بالتعاطف والمتعة الكافيين كما يحدث له بعد الانتهاء من قراءة أحد المبدعين السود ويرجع ذلك لسببين أولهما: أن المبدع الأسود لا يستطيع أبداً أن يتجاهل الحقيقة المتمثلة فى كونه أحد أصحاب البلاد الأصليين، بالإضافة إلى ما يلقاه دائماً من اضطهاد وعبودية ونفى واعتقال ومصادرة، فنراه يعبر عن واقع ملموس بأسلوب بسيط يتناسب مع أشكال الكتابة الأدبية التى تحمل قضايا وهموم وطنية.

أما السبب الثانى فهو أسلوب نادين جورديمر فى الكتابة .. ذلك الأسلوب البالغ التعقيد والذى يفوت على القارىء قدرته على المتابعة وبالتالى يفقده التعاطف المطلوب وهذا الأسلوب وتلك التركيبات اللغوية بالغة الصعوبة هما السبب - على ما أعتقد - فى إحجام المترجمين عن التصدى لترجمة أعمالها الكثيرة على العكس مما حدث مع أعمال كل الحاصلين على نفس الجائزة من قبلها .

يذكرنا السبب الأول بضرورة الإشارة إلى اثنين من أهم المبدعين السود فى جنوب أفريقيا وأكثرهم تميزاً ألا وهما «أليكس لاجوما» و «حزقيال مغاليلى» .

ولد «أليكس لاجوما» فى مدينة كيب تاون عام ١٩٢٥ وظل تحت الحراسة منذ عام ١٩٦٢ حتى غادر البلاد مع عائلته عام ١٩٦٦ وكان ممنوعاً من الدخول بسبب أنشطته السياسية .

تتميز أعمال لاجوما القصصية والروائية بالغوص فى أعماق الناس وإظهار معاناتهم وتسيطر عليه فكرة الأرض واللون والحركات النضالية والرفض الكامل لسياسة التمييز العنصرى وتكمن قوة كتاباته فى البناء المحكم البسيط والواقعية المتمثلة فى الفعل

والشخصيات .

في رواية «شرود في الليل Awalk in night» الصادرة عام ١٩٦٧ يصف كآبة ووحشة المكان الغارق في الحب ويتعرض لأساليب النضال عبر حافة جبل مرتفع بقوله : (ننشب مخالبنا في الصخور من أجل موطيء قدم ونتنفس بصعوبة ذلك النسيم القادم من الشمال الشرقي) ويعبر عن معاناة الناس بقوله : (إنهم يشعرون بالنسيم في بيوتهم الخانقة من خلال الشقوق والنوافذ المهشمة .)

ونرى «چو» الذي يعشق البحر ويتخذ لنفسه فلسفة بسيطة في الحياة وهو يمضي في نهاية الرواية نحو البحر حيث يمكنه التحايل على العيش فيقول : (المشي وحيدا في الظلام المضاء بالنجوم .)

ثم يضيف «أليكس لاجوما» بأسلوبه الأخاذ : (في الصباح يصبح مشبعاً برائحة المحيط وينحني قريباً من السطح الأخضر ليرى سعف النخيل وأعشاب البحر ومن خلال الصخور يتفحص غموض الحياة في كائنات البحر المختلفة الرائعة ويستمع إلى الموج القاسي وهو يصطدم بتلك الصخور.)

كتب «لاجوما» أهم الروايات التي تحتل مكانا «بارزاً في كيب تاون مثل رواية :

(الحبل الثلاثي And The Three Fold Cord) ١٩٦٤

(الوطن الحجري the Stone Country) ١٩٦٧

(عندما ينقشع الضباب In The Fog of The Season,s End) ١٩٧٣

(زمن البوتشربيرد Time of The Butcherbird) ١٩٧٩

وأهم ما يلفت الانتباه في تلك الروايات هو ميلودراما الجريمة والعنف والاختطاف، وموت الأطفال في الحرائق، والاعتقالات والمنشورات السياسية. وتبدو كل شخوص «لاجوما» ضد النظام وتحتل التفرقة بين الأبيض والأسود مكاناً بارزاً في إبداعاته كما في

رواية «الوطن الحجرى» على سبيل المثال حيث تصل التفرقة إلى داخل السجن أيضاً فلا المعاملة هى نفس المعاملة ولا الطعام هو نفس الطعام .

لا يفوت «لاجوما» تفسير السبب وراء القبض على السود والزج بهم داخل السجون إذا لم يكونوا من السياسيين فيقول : (إنهم يدخلون السجن نتيجة ليأس شديد من لونهم الأسود مما يجعلهم يرتكبون الجرائم)

فى رواية «عندما ينقشع الضباب» التى كتبها فى المنفى يسود الضباب فى نهاية الرواية وينتهى التمرد بموت إلياس حتى يخيل للقارئ أن «لاجوما» يمثل رؤية تشاؤمية نظراً لنهاياته المنهزمة لكنه فى الحقيقة متفاؤل بالغد لأنه يرى فى عذابات إلياس الحرية فى استمرار الآخرين وهذه الاستمرارية هى ما تشغله أكثر من عذابات إلياس .

إن الحوار عند «أليكس لاجوما» مختصر ويوحى بالدلالة ودائماً ما نجد أبطاله المنشغلين بالأنشطة السياسية يعرفون ما يفعلونه وما يفكرون به كما فى رواية «الوطن الحجرى» حيث لا يشعر جورج آدمز بأى أسف لاعتقاله بسبب تهمة سياسية ويعبر المؤلف عن ذلك بقوله : (لقد فعل الصواب من وجهة نظره وكان يعرف النتائج) .

قبل العودة إلى «نادين جورديمر» يتحتم علينا عند ذكر الإبداع والرواية فى جنوب أفريقيا أن نشير إلى عميد الأدب الأفريقى كما يلقبونه هناك والذى عانى مثل «أليكس لاجوما» من قسوة المنفى ولقد عبر عن ذلك بقوله : (أريد أن أبقى على اتصال ببيئتى فالكتابة خارج البلاد بلا معنى خاصة وأن القدرة على إسترجاع الأحداث تصبح متعذرة بعض الشىء.)

إنه «حزقيال مغاليلى» المولود عام ١٩١٩ فى بريتوريا والذى غادر جنوب أفريقيا مع أسرته قاصداً نيجيريا .

يتميز أسلوب «مغاليلى» بالبساطة الشديدة فى تناول نفس القضايا الساخنة المشتعلة فوق أرض الواقع ولقد كتب كثيراً من الأعمال القصصية والروائية إلا أن معظمها تمت مصادرته ولعل رواية «نزولاً إلى الشارع الثانى **Down Second Avenue**» التى بدأ بها الكتابة ١٩٥٩ هى أحد أهم أعماله رغم أنها سيرة ذاتية عن حياته فى جنوب أفريقيا .

كتب «مغاليلى» رواية «المشردون **The Wanderers**» عام ١٩٧١ وبعد ثلاث سنوات تلاها برواية «شيروندو **Chirundu**» إلا أنها لم تنشر إلا بعد خمس سنوات من كتابتها وكانت هى وروايته المبكرة «يجب أن يحيا الانسان **Man Must Live**» هما الروايتان الوحيدتان اللتان تم نشرهما فى جنوب إفريقيا على العكس من بقية أعماله التى نشرت جميعها خارج البلاد. وقد حدث ذلك بعد تراجع الحكومة البيضاء عن قرار منع أعماله فسارعت دور النشر بإضافة إبداعات عميد الأدب إلى قائمة الكتاب.

وفى مجال نقد الأدب الأفريقى كتب «مغاليلى» مجلداً رائداً بعنوان : «الصورة الأفريقية **The African Image**»

- يطول الحديث عن «لاجوما» و «مغاليلى» وأعمالهما الفريدة ولنا معهما عودة فى المقدمة التى ستتصدر رواية «أليكس لاجوما» «زمن البوتشربيرد(*) **Time of The Butcherbird**» والتى نوشك على الانتهاء من ترجمتها

- ولدت نادين جوورديمر فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩٢٣ بمدينة سبورنجز فى جنوب أفريقيا من أب هولندى وتعيش الآن فى جوهانسبرج وكتبت العديد من الروايات :

- الأيام الكاذبة ١٩٥٣

* البوتشربيرد : طائر من الفصيلة الصردية .

- صاحب الحيازة ١٩٥٨
- عالم الغرباء ١٩٥٨
- مناسبة للحب ١٩٦٣
- العالم البرجوازى الزائل ١٩٦٦
- ضيف شرف ١٩٧٠
- ابنة برجر ١٩٧٩
- شعب جولاى ١٩٨١
- قصة ابنى ١٩٩٠

كما صدرت لها المجموعات القصصية الآتية :

- وجهاً لوجه ١٩٤٩
- فحيح الأفعى الناعم ١٩٥٢
- ستة أقدام من البلاد ١٩٥٦
- آثار أقدام نهار الجمعة ١٩٦٠
- غير صالح للنشر ١٩٦٥
- شىء ما هناك ١٩٨٥
- نزوة الطبيعة ١٩٨٧

وقد ترجمت أعمالها إلى عدة لغات وكانت الحكومة العنصرية فى جنوب أفريقيا - قبل حصولها على الجائزة - تمنع تداول أعمالها بسبب وجهات نظرها الجريئة ومقاومتها لسياسة التمييز العنصرى .

وإذن فنحن أمام كاتبة غزيرة الانتاج يستولى على إنتاجها موضوع أثير لديها وهو الوقوف بشدة ضد سياسة الأبارتايد والاشتغال بالسياسة والمطالبة بالمساواة والحرية وإدانة المجتمع الأبيض، كما فى هذه الرواية التى تعرى فيها ذلك المجتمع فتقول على لسان جراهام : (إنهم يدعوننا بالعالم البرجوازى الزائل) والجدير بالذكر أن الحكومة البيضاء قد صادرت هذه الرواية بحجة أن الشخصيات الرئيسية من البيض والسود غارقون فى علاقات

جنسية، غير أن السبب الحقيقى هو إدانة المجتمع الأبيض .. ذلك المجتمع القاسى الذى ينقصه الشعور والقدرة على التواصل ليس فقط بين الأبيض والأسود وإنما أيضاً بين الأبيض والأبيض.

إن نادين جورديمر تريد أن تقول ببساطة فى هذه الرواية أن البيض فى جنوب أفريقيا قوم مجردون من الصفات الإنسانية حتى أنهم يخافون من العيش كسائر البشر ويخشون التعامل بصدق مع أحاسيسهم لأنهم موافقون ضمناً على العيش فى ظل قوانين غير إنسانية .

إن المصادرة والنفى والاعتقال والتفرقة العنصرية هى الملامح الرئيسية فى أدب جنوب أفريقيا حتى أن الكتابة لدى مبدعيها تشكل ضرورة ملحة فى مواجهة ذلك المناخ السياسى المعادى للإبداع، ولاشك أن نادين جورديمر واحدة من أولئك الكتاب الذين رأوا فى الكتابة تلك الضرورة .

قال «وول سوينكا» : (لو أنه لا يوجد سوى شكل أدبى واحد وطريقة تواصل لغوية واحدة لأصابنا الفناء بفعل الضجر والملل .)

ولعل هذه المقولة تفسر تلك الضرورة وذلك التفرد الإبداعى الذى تتميز به القارة الأفريقية السوداء عموماً وجنوب أفريقيا على وجه التحديد .

* قدرات مؤكدة ..
ولكن تحت أى حجر
تختبىء ؟

«فرانز كافكا»

* الشجاعة والتحدى
يتطلبان قدراً من
الجنون
.. تلك هى حكمة
الحياة.

«مكسيم جوركى»



الفصل الأول

قرأت البرقية وقلت : لقد مات .

رفعت بصرى فأدركت من نظرات جراهام ميلز أنه يعرف ما أعنى .. كان ميلز قد التقى بزوجى الأول ماكس بضع مرات وسمع عنه كل شيء كما أنه ساعدنى فى زيارته عندما كان فى السجن .

مديده إلى البرقية وقال بصوته العذب : كيف ؟

قدمت له البرقية وقلت : لقد قتل نفسه .

قرأ جراهام ميلز : (تم العثور على ماكس غريقا فى سيارة بميناء كيب تاون.)

ثم قال : ومتى حدث ذلك ؟

لم أكن أعرف شيئاً عن ماكس منذ أكثر من عام حتى أنه لم يتذكر عيد ميلاد بوبو فى الشهر الماضى فأجبت ببرود وغضب : الليلة الماضية وربما صباح اليوم .

أومأ جراهام برأسه فى غضب وقال وهو يحدق بعيداً عنى : لم أتابع آخر الأخبار وربما ينشرون الخبر فى صحف الصباح .

كانت الصحف فوق المائدة تتوسط الأكواب المليئة بالقهوة

إلى نصفها بجوار السجائر المشتعلة، وكان أحد أيام السبت التى لا أذهب فيها للعمل والتى اعتاد فيها جراهام أن يأتى ويشاركنى إفطارى المتأخر وقراءة الصحف كما يفعل المتزوجون القدامى .. كانت صفحة الأخبار الخاصة بالأحداث الأخيرة والطارئة ملقاة بجوار إبريق العسل فقمت بقراءتها غير أننى لم أجد شيئاً سوى بعض التفاصيل المملة عن أهداف مباراة الجولف الدولية الأخيرة .

قال جراهام بعد الاطلاع على البرقية مرة أخرى : لماذا ؟ .. إنها نهاية غير متوقعة لماكس .

شعرت باضطراب شديد وأجبت : بسببى !

لم يفارقنى اضطرابى منذ اللحظة التى تسلمت فيها البرقية فلم أستطع الجلوس أو الوقوف فى مكان واحدا، ولم يكن أمام جراهام إلا أن يتسلح بالصبر فى مواجهة اضطرابى وغضبى وقد أصابته الدهشة من اتهامى لنفسى وإحساسى بالذنب الذى يعلم الله أنه ليس ذنبى .

فكر جراهام فى بوبو الذى يشير إليه دائماً بالولد وقال : ماذا عن الولد ؟..

لا يجب أن يفاجأ بالحادثة فى صحف هذا المساء فهل أذهب إليه فى المدرسة وأخبره بكل شيء ؟

قلت : لا .. سأذهب بنفسى فهو ابنى قبل كل شيء .

حاول جراهام بعقلية المحامى أن يذهب للولد بنفسه للتخفيف عنه نحو مزيد لتأكيد علاقته بى لكن ذلك ليس فى

صالح بوبو الذى قد ينظر إليه أو إلى أى صديق لى كأب خاصة إذا انتهت هذه الصداقة.

ناولنى كوباً آخر من القهوة ثم أشار إلى مقعدى وقال : مزيد من القهوة قد يفيد.

تناولت قهوتى دون أن أجلس واجتاحتنى رغبة قوية فى سماع أى شىء صحيح من أى شخص، فبدوت وكأننى فى حالة صراع غريب ثم تساءلت : صراع مع من ؟ .. لابد أن أذهب للولد هذا الصباح ويجب أيضاً أن أزور جدتى بعد ظهر اليوم .

قال جراهام الذى يعرف أننى لا أقوم بزيارة السيدة العجوز بانتظام : فلتفعلى ذلك غداً .

أجبت : لا .. فاليوم عيد ميلادها ولا أستطيع تأجيل الزيارة.

ابتسم وقال : كم عمرها الآن ؟

قلت : فى الثمانين تقريباً .

عرفت معنى البرقية من طريقة صياغتها لكننى عاودت قراءتها مرة أخرى قبل الإلقاء بها فى صينية الإفطار، ثم توجهت للحمام وتركت الماء يتدفق فوق رأسى وجسدى وعندما خرجت لارتداء ملابسى كان جراهام يتصفح الجريدة باهتمام بالغ وهو جالس فى الشمس أمام باب شرفتى المفتوح، وأثناء تجوالى فى الشقة سمعته يتنهد .. كان يرتدى سترة من الصوف الخشن يطيب له دائماً أن يقضى بها عطلة نهاية الإسبوع وقميص من الحرير الناعم وكان له فك شاحب متجعد

وعينان عميقتان تختفيان خلف نظارة سميكة وتوحيان بأن صاحبهما يعمل حتى وقت متأخر من الليل .. كان فم جراهام كبيراً وشفتاه ممدتان يميل لونهما إلى الأزرق، وعندما كان يقف تحت ضوء الفناء مرتدياً زى المحامى كانت تغطى وجهه تلك النظارة السميكة وذلك الفم الكبير .

انتهيت من ارتداء ملابسى وأصبحت مستعدة للرحيل فنهض جراهام للانصراف وقال : هل ستذهبين إلى عائلة شرويدرز فى موعد الشراب بعد عودتك من عند الجدة .. إنهم سيرحلون غداً إلى أوروبا .

– لا أعتقد ذلك .

– ماذا ستفعلين إذن ؟ هل ترغبين فى تناول العشاء بمكان ما ؟

– لا .. لا أستطيع .

إن جراهام ليس شاباً مراهقاً وإنما هو فى السادسة والأربعين من عمره فلم تظهر عليه أى من علامات الضيق أو الاستياء، فتناول سجائره ومفاتيح سيارته وقبل أن يهم بالمغادرة قلت : هل بمقدورك أن تفعل شيئاً من أجلى ؟ ،، هل تستطيع الذهاب إلى بائع الزهور نيابة عنى وتطلب منه إرسال بعض الزهور إلى السيدة العجوز لأن المحلات ستكون مغلقة بعد عودتى من المدرسة ؟

أشار برأسه موافقاً دون أن يبتسم ثم تناول قلماً وكتب العنوان بخطه الجميل .

الطريق إلى المدرسة يؤدى إلى أخدود جوهانسبرج ذى التلال الكثيرة ويفضى إلى حقول الذرة والأرض المنبسطة المغطاة بمروج الأشجار .. إنها بداية الشتاء ورياح صباحية تمتزج بضوء الشمس وتصطدم بالأشجار القليلة فيستحيل لونها إلى سواد فى مواجهة الأعشاب الشاحبة، وكان من اليسير أن يتنسم المرء رائحة عذبة خلَّفتها برودة الليلة الماضية .. كانت شجرات الفلفل القديمة المتناثرة هنا وهناك تجعل المرء يشعر وكأنه فى بيت داخل مزرعة وكانت شجرة الأوكاليبتوس (*) بتموجاتها القديمة وكذا أشجار السنط بأغصانها الكثيفة ثم تلك الأكواخ الطينية المهجورة والدكان الهندى وشجرة الصفصاف المنتصبة بلونها الباهت إلى جوار شق فى الأرض .

كل شيء كما هو وكل شيء كما كان منذ طفولة ماكس .. نفس الطريق الذى عرفته فى طفولتى ومشيت فيه مراراً ونفس الصباح الذى استيقظت فيه كثيراً .

تسللت الشمس داخل سيارتى حتى اخترقت جفونى وكانت هى الأشياء ذاتها، الشمس، الأعشاب الشاحبة، الهواء النقى والإحساس بماكس وبما حدث لنا معاً .. أوه، كيف لهذا الصباح أن يظل كما هو ؟! .. إننا نعرف أن الوقت يمضى كلما تغيرت الأشياء لكن الفضاء هنا متسع دائماً والشمس لا تتوقف عن الدوران، ولو أننى عشت فى مكان آخر من العالم لما

(*) الأوكاليبتوس eucalyptus : أشجار تستخدم أوراقها طبياً (المترجم)

عرفت أن هذا الصباح الخاص إنما هو ظاهرة جغرافية طبيعية مثل سقوط الأمطار السنوى وضغط الجو المستمر.

نشأ ماكس وسط مزرعة أبيه الخاصه. وكان يخشى المروج حيث يقيمون الحفلات ويهتمون بتربية البط كأحد مظاهر التباهي ولقد أخبرنى ذات مرة أنه كان يسمع أصوات البط بين الأشجار أثناء عودته من الغابة دون أن يفهم ما يقوله البط .

كان أبوه عضواً فى البرلمان فرحت أفكر فى موته وفى الطريقة التى مات بها ووجدت نفسى أردد بهدوء : طبعاً، لقد غرق بالسيارة فى البحر كما أحرق ذات مرة ملابس والديه ومثلما حاول منذ ثلاث سنوات أن ينسف مكتب البريد .. لم أكن أتوقف عن اللعب مع ماكس فى ذلك الوقت لكننى لم أكن أيضاً أعرف وهكذا انتابنى هدوء ممتزج بالغضب عندما تلقيت البرقية وهمست لنفسى : آه لو كنت أعرف !!.

عرفت بعد قراءة البرقية أننى السبب فكل شيء بيننا كان قد انتهى وتحطم، وكان الفشل يلاحق حياتنا معاً ورغم محاولاتنا الجادة فى الحفاظ على ما بيننا إلا أن الرياح اجتاحت كل شيء وتفرقنا إلى ذرات بللورية .

انحرفت فجأة لأتجنب تصادماً فى الطريق ثم عدت لهدوئى وبدوت كما لو أننى أعبر نقطة قريبة من شيء معين فى نفسى .. إنها الذاكرة التى تعود بنا إلى الطفولة وحرية الانطلاق لكننى قلت : لقد مات ماكس .

كنت دائماً أفعل ما أحب فى صباحات أيام السبت لكننى

منذ أسابيع لم أفعل شيئًا سوى دعوة جراهام على الإفطار والعناية بشعرى والذهاب أحيانًا لمحلات ضواحى المدينة دون ضرورة ما وغالباً ما كنا نلتزم بالبقاء فى المنزل. ولا نخرج إلا قليلاً دون أن ننام معاً، ومع مرور الوقت أصبحت زيارات جراهام تقليداً وصارت أمسياتى فى الحانات والنوادى مع قوم لا أعرفهم جزءاً من العادة .

كانت أيام السبت أيضاً هى فرصتى النادرة لمشاهدة بوبو الذى لا يسمحون له بالخروج سوى مرتين فى الشهر من أيام الأحد، ولم تكن المدرسة تشجع زيارة الوالدين بين هاتين المرتين لكننى الآن أقود السيارة فى طريقى للمدرسة وقد أدركت أننى لم أشتر شيئاً من أجل بوبو .. أوه، ربما أستطيع اصطحابه إلى الخارج وعندئذ يمكننى أن أشترى له الشاى وبعض الكعك بالكريم من فندق المدينة القريب من المدرسة .. إن تقديم الهدايا إلى بوبو - كما أرى - شىء هام وضرورى كنت أعرف أهميته فى ملامح وجهه عندما أفتح سلة التفاح وعلبة الحلوى وهكذا كانت طريقتى فى محاولة سد النقص .

يجب ألا أبوح بأسبابى وعله وحده أن يفهم .. ليتنى أستطيع أن أحفظه كما تحفظ إناث القردة صغارهن تحت أجسادهن، لكننى لا أستطيع أن أقدم له ضروريات الحياة ليحيا فى ظل أب وأم وعائلة كما عشت أنا وماكس .. أوه، من اليسير أن نوجه اللوم لآبائنا حين يصيبنا التعب، فنحن ننتمى إلى الجيل الذى يلقى بأعبائه على فرويد كما كان الجيل السابق

يلقى بأعبائه على المسيح ، ولكن ماذا عن كل أولئك السود الذين يتلقون الحسنات والعطايا وليس لهم قانون يقوم على حمايتهم . . والذين لا يشعرون بأنفسهم ويجهلون أنهم ليسوا سوى خدم عندنا . . ولا يملكون شيئًا يقدمون من أجله الشكر . . أولئك المخدعون بالحسنات الذين يتملكهم الجوع والأذى .

عندما يكبر بوبو سوف يواجهنى بأسئلة صعبة لا أعرف نوعها ولست على يقينٍ من الطريقة التى سأخبره بها عن كل شيء والتى قد تجعله بائسًا إلى الأبد لكننى أرى أنه سيبحث عن سلامه فى مكان آخر ، بعيداً عن ضواحى البيض الذين يحافظون على سلالتهم . . أحمد الله أنه لم يولد فى تلك الضواحى فقد كان أحد الملايين من الأطفال الذين يتخلقون فى السيارات والمزارع والحدائق والأزقة فى كل أنحاء العالم حيث إن حجرات المعيشة ذات الزهور والدوارق لا تعرف ممارسة الحب . . إن حجرات النوم فى ضواحى البيض لا تعرف سوى التأمل تماماً كالشرفات .

كنا شركاء فى الخطأ وقلت لماكس : أنت تنسى .

هز كتفيه بضجر ثم غير الموضوع كما يفعل دائمًا وقال : أتمنى أن يكون لى طفل يخلفنى ، فالطفولة عالم جميل وغير ملوث والطفل يصيح كل الوقت وعندئذ ترين أشياء حقيقية كألوان الأحجار وقطع الأخشاب .

ها قد مضى أكثر من عام منذ شاهد بوبو للمرة الأخيرة حين أظهر حبًا كبيرًا للولد وراح يلعب ويمزح معه مما أثار سعادتى

خاصة وأنه كان فى المرات السابقة يصرخ فيه فأجد نفسى مضطرة لحمله والمضى به فى الشوارع .

قبل وصولى المدرسة بقليل كانت إحدى عربات الفاكهة عند جانب الطريق وبجوارها رجل أسود يقفز فوق النار وهو ممسك بعصا تلتصق فى طرفها العلوى برتقالة .. توقفت واشتريت بعض الفاكهة لبوبو .

أرض المدرسة فسيحة وتحيطها الأشجار من كل اتجاه وهذا ما جعلنى أختار هذه المدرسة لكى يجد بوبو فرصة للعب بعيداً عن الحقول والممرات .. كان ضرورياً أن يلتحق بهذه المدرسة ذات البوابة الحديدية والاسم المكتوب بحروف تنتسب إلى مجموعة من اللغات الهندية الأوربية .. هذه المدرسة ذات قوالب الطوب المتراصة على هيئة صلبان مرتفعة فى كل مكان.

إن المنظر العام للمدرسة يشعرنى بالقمع ويصيبنى بالخوف .. دخلت من البوابة بحذر حيث يقف بعض الرجال السود بملابس نظيفة، والبعض الآخر مشغول بنظافة السور وزهور الحديقة الرئيسية أو تقليم الشجيرات وإزاحة أوراق الشجر، وأبصرت لافتة من القصدير على شكل يد تشير بالسبابة إلى مكان انتظار الزائرين .. توقفت بالسيارة فى المكان المحدد وكانت الساعة تقترب من الحادية عشرة فاجتاحنى القلق من ذلك المكان الذى أراه دائما كالسجن .. كانت صيحات الأولاد تتقافز عبر الملاعب والأركان الخلفية للمبانى، وظلت هذه الصيحات الفرحة بالحياة تتصاعد خلف قوالب الطوب النظيفة

وتتخلل الفراغ الغارق فى الشمس.

صعدت السلالم البراقة وطرقت فوق الباب المطلى بالزيت طرقات قوية .. فتح الباب شاب جديد ذو فك كبير وحضورٍ جذاب ثم صافحنى برقة وقلة دراية بالنساء وكان يرتدى بنطالاً قذراً وضيقاً ويحكم ربطة العنق، ولم يكن من العسير معرفة أنه أحد خريجى إكسفورد أو كامبريدج الذين يعملون فى إفريقيا ويضيفونٍ إلى المناهج طابع العصر مثل ذلك الذى أخبرنى عنه بوبو قائلاً : إنه يعزف على الجيتار ويعلم الأولاد وجهة النظر الأمريكية ضد القنابل وضد سياسة التمييز العنصرى والأغانى الفلكلورية .

اصطحبنى السيد الشاب إلى مكتب الناظر وطلب منى الجلوس حتى يذهب لاستدعائه من حجرة الأساتذة حيث يتناولون الشاى، فكان المكتب كما رأيته بضع مرات من قبل نظيفاً بطريقة تبعث على الاستفزاز وتزينه مجموعة من صور أذرع وعضلات رياضية قوية، وله أرضية لامعة تغطيها سجادة ذات لون بنى أما صورة الناظر المقطوعة من مجلة المدرسة فلها إطار من الورق المقوى .. إنه رجل لبق وإنسان كما يقول عنه الجميع .

رحب بى وأعرب عن سعادته لرؤيتى فأزاح عن كاهلى القلق الناتج عن زيارتى فى غير الأيام الرسمية .. لابد أنه أدرك أن ثمة شيئا هاما جئت لأجله لكنه لم يكن متعجلاً ولم يتوقف عن ابتهاجه وترحيبه مما ساعدنى فى الاستعداد لبدء سرد قصتى،

فأخبرته بوفاة والد بوبو وحدثته عن الطريقة التي مات بها .. بدا الرجل مسيحياً طيباً ومتفهماً كما يحدث غالباً في مثل هذه الظروف رغم تظاهره بالانتباه الناتج عن عدم معرفته بأمثالنا من الناس، ثم حكيت له عن ظروف بوبو وعن الطلاق والاعتقال السياسي وموت ماكس الأخير، فعرف كل شيء خاصة وأنه يتابع في الصحف أبحاث الكنيسة عن اللواطة والإجهاض كما أنه متزوج من السيدة جيلنجر التي تدرس الفن بنفس المدرسة منذ ما يربو على خمسة وعشرين عاماً، ولقد عرفت أن ابنتهما تزوجت في العام الماضي بأحد طلبة المدرسة المتفوقين .

نهض من مكانه وسارع بفتح الباب ثم نادى على أحد الأولاد في الممر قائلاً :

- بريثويت، اذهب لإرسال بروس فان دن ساندت .. هل تعرفه ؟ .. إنه في الصف الرابع .

- نعم سيدي .. إنني أعرفه وأعتقد أنه في المكتبة .

سارع الولد لإحضار بوبو بطريقة تركت أثرها بين حواجب الناظر .

بروس فان دن ساندت .. أوه .. إنها إحدى المرات القليلة جداً التي أسمع فيها هذا الاسم والذي يسرني سماعه .. إنه بوبو ابن ماكس الميت لكن اسمه يتردد بصوت عال في أروقة المدرسة .

قال الناظر : ادخل .

ثم قال لي وهو يفتح باب حجرة الزائرين : من الأفضل أن

تتحدثى إليه بمفردك . كنت راغبة فى اصطحابه للخارج وتبادل الحديث معه ونحن نتجول بالسيارة لكننى لم أستطع البوح برغبتى للناظر فتساءلت بينى وبين نفسى : لماذا أخجل ببلاهة أمام أولئك الناس رغم كراهيتى لقيودهم وطريقة حياتهم ؟

انتظرت قليلاً بقاعة الاستقبال حتى فتح بوبو الباب فملأ المدخل بحضوره، وكانت أذناه متوهجتين وفتحتا أنفه واسعتين وكأنه قد فرغ لتوه من الجرى واللعب .. حرَّك يديه وابتسم ابتسامة ميتة وقال : ماما؟ .. لم يخبرنى أحد بقدومك !

ثم عانقنى وضحكنا كما يحدث دائماً حين نلتقى ونسعد بوجودنا معًا بعيداً عن المدرسة وعن أى شىء آخر .

سألنى : كيف سمحوا لك بالدخول ؟

لم أكن قد فكرت فيما سأقول ولم يعد ثمة وقت للتفكير فأمسكت بيده وأشرت بها ناحيتى بصعوبة ثم قلت : جئت لأتحدث معك يا بوبو بشأن والدك ماكس.

كان بوبو صغيراً أثناء محاكمة ماكس ودخوله السجن وعندما كبر قليلاً حكيت له عن كل شىء، فأبدى تفهماً واضحاً وصار من يومها متوقعاً للمتاعب فى أى وقت. جلسنا سوياً فوق مقعد صغير قديم كما يجلس العشاق فى مواجهة بعضهما البعض فقال چيلى : - شد جوربك إلى أعلى فأنت تجلس مع أمك.

شد بوبو جوربه المتهالك ثم قلت : لقد مات يا بوبو .. وصلتنى برقية هذا الصباح وسوف ينشرون الخبر فى الصحف

فرأيت أن أخبرك بنفسى .. لقد قتل نفسه .

أصابت بوبو الدهشة وتلاشت نضارة وجهه وقال : هل تعنين أنه انتحر ؟

قلت : نعم .. لقد قرر الانتهاء من كل شيء مرة واحدة وإلى الأبد فاستقل سيارته فى اتجاه البحر وكما تعلم يا بوبو أنه لم يكن يخاف البحر وإنما كان يعشقه ويشعر وسط مياهه كأنه فى بيته .

هز رأسه وظل ينظر نحوى بعينين جاحظتين ولست أدرى فيما كان يفكر غير أننا لم نتظاهر بالحزن على ماكس .

قال بوبو الذى لا يعرف ماكس جيداً : لا أستطيع أن أتذكر ملامحه .

- لكنك رأيته منذ فترة لا تتعدى ثمانية عشر شهراً .

- نعم .. ويومها تعرفت عليه بصعوبة وكنت طوال الوقت أنظر إليه وأراه كما ترين شخصاً لأول مرة ثم لا تستطيعين تذكر ملامحه .

- لديك صورة له معنا تستطيع أن تجدها فى خزانته داخل حقيبة الأوراق الجلدية .. إنك تجلس بيننا فى هذه الصورة مثل بقية الأولاد .

- أوه .. نعم

سادت فترة من الصمت ولم يعد ثمة ما يقال ربما لأنه من غير الممكن قول كل شيء فى وقت واحد وبخاصة فى هذه الحجرة .

– اشتريت لك بعض الفاكهة من الطريق ونسيت أن أحضر لك أى شيء من المدينة .

قال بذهول : شكراً مام ولكن اتركيها الآن فسوف أضعها فى مكتبى بعد أن تنصرفى حتى لا يراها أحد .

ثم أضاف : فلنخرج قليلاً .

– هل مسموح لنا بالخروج ؟

– أوه .. الانضباط .. من الصعب تخيل مثل هذا المكان ولكننى على أية حال سأسأل مستر جيلنج .

أغلقنا باب حجرة الزائرين خلفنا وأنا أبتسم بقلق وتوجهنا نحو حديقة المدرسة الخالية من الأولاد ثم سرنا إلى الأمام والخلف ونحن نتبادل الحديث فى أشياء تافهة كما يفعل الناس عند زيارة مريض بأحد المستشفيات .

حدثنى بو عن رسالته التى طلب فيها حذاء لكرة القدم وعن إمكانية إحضار لوبرت معه الأحد القادم لكن الرسالة التى وصلتنى من المدرسة كانت عن دروس الملاكمة فأردت أن أعرف رأيه فى ذلك .

دلفنا إلى داخل السيارة فقال بوبو بضيق : لماذا لا تتركين السيارة فى المدينة يا ماما وتسيرين على الأقدام ؟

ثم جلس إلى جوارى وراح يتحسس مقبض الباب المفكوك وهو يفكر فى كيفية تثبيته .. كان بوبو يشعر داخل السيارة كأنه فى بيته فيسارع بالتقاط الصحف القديمة من فوق تابلوه السيارة ويقوم بالاطلاع عليها كما لا يتوقف عن التفتيش فى

صندوق القفازات عن النعناع وهو يقلب تصاريح المرور .

قال : لا أعتقد أن ذلك كان مؤلماً

قلت : أوه .. لا تقلق نفسك بذلك فقد كان طوال حياته مؤمناً بما يفعل . أطرق رأسه وظل ينظر حواليه ثم اتجه ببصره نحوى دون أن يرفع رأسه وقال بدون تفكير : أشعر بالأسف لأننى لم أحبه .

حدقت فيه وقلت دون رغبة فى خداعه : قد تسمع كلاماً كثيراً بين الأولاد لكنه مات وهو على صواب حتى لو كانت طريقته خطأ .. لقد حاول كثيراً لكن شيئاً من محاولاته لم يتحقق ويكفى أنه لم يعش لينام فقط ويأكل .. إنه لم يكن سعيداً بتمرده على أهله وبنى جنسه وعلى أية حال فإن الفشل أفضل كثيراً من عدم المحاولة فهناك بعض الرجال الذين يعيشون بنجاح فى هذا العالم لكنهم لا يملكون شجاعة المحاولة خوفاً من الفشل .

رفع بوبو الصغير بصره وقد شعر بالرضا ثم قال وهو يتنهد بقوة :

- كنا نعانى دائماً من المتاعب بسبب السياسة .. أليس كذلك ؟

قلت : ليس صحيحاً أن كل شىء كان بسبب السياسة فلقد تسببت وجهات نظر ماكس السياسية فى كثير من المتاعب ، لكن إقدامه على الموت لم يكن نتيجة مباشرة لأى شىء متعلق بالسياسة لأننى أعرف أنه كان يعانى ورطة شديدة لم يستطع

التعايش معها .. إنه لم يقدر على الوفاء بالمتطلبات التى أخذها على عاتقه .

ثم أضفت بفتور، كما فعلت أنت حين عزمت على اللعب فى الفريق الأول بينما لم تكن تليق إلا باللعب فى الفريق الثالث .

هز رأسه ببطء وهو يتابع حديثى مثلما يفعل النبات عندما يتنفس وأخيراً كان عليه أن يقبل ما سمعه منى ولم يخبرنى هذه المرة عما يقوله له الآخرون كما كان يفعل بغضب فى المرات السابقة .. إنهم يشوهون سمعتى لكننى أرغب دائماً فى سماع ما يقولون لأننى جديرة بالدفاع عن نفسى أما بوبو فهو من جيل لا يعرف أسلحة الجيل الآخر .

أمسك بيدى وراح يقبلها برقة كما تعود أن يفعل وهو صغير ولست أعرف لماذا كان يقبل ظهر يدى هذه المرة وخاصة الإبهام .. كان بوبو قد توقف عن تقبيل يدى منذ خمس سنوات فهل هو نوع من الارتباك أم أنه فقد حاجته لذلك ؟!

سألنى : ماذا ستفعلين اليوم ؟ هل سيأتى جراهام ؟

أجبت : لا أعتقد فلقد جاء هذا الصباح وتناول الإفطار معى .

- أعتقد أن جيلنج سيصلى على ماكس الليلة لأنه دائمًا يصلى على الموتى .

- الصلاة على روح ماكس ستقام فى كنيسة المدرسة الصغيرة ولن تكون هناك أية طقوس أخرى وأتمنى ألا يصلى عليه أولئك الذين كان يعمل معهم أو الذين قام بخيانتهم لأنه

لم يكن بطلاً ولكن من يدرى ؟!.. ربما صنع قنبلته الصغيرة من أجل حرية السود .. إن الرجال البيض تناولوا الموضوع باستخفاف عندما لجأ إلى أحد الشهود الرسميين .. ربما كان ماكس نوعاً من الأبطال يجب أن نتوقعه .

شعر بوبو بالضيق والقلق عندما أوشكت على الانصراف فقال : هل أدير لك السيارة ؟

نسيت ما قد يثيره من متاعب إذا شاهده أحد فتحركت طواعية إلى المقعد الآخر بينما نزل بوبو من السيارة ودخل من الباب المجاور لعجلة القيادة ثم بدأ يقود السيارة فى مكان انتظار السيارات .

قلت : كفى .. قف .

ضحك ثم توقف ، فأضفت : إلى اللقاء يوم الأحد وسوف تحضر معك ...... ما اسمه ؟

- لوبرت .

- أعتقد أننى لم أقابله من قبل .. وماذا عن ويلدون ؟ ألا يريد أن يأتى أيضاً ؟ إنه أحد الأولاد الذين يعيشون بعيداً ويصعب عليه الذهاب إلى بلده فى فسحات أيام الآحاد .. هل تشاجرتما أو حدث شىء بينكما ؟

- لا .. لم يحدث شىء لكنه بعد مباراة كرة القدم وبعد أن يصيبنا العرق يقول بأن رائحتنا مثل رائحة الـ(*) Kaffirs

(*) Kaffirs : تعنى الناطقين بلغة البانتو فى جنوب إفريقيا (المترجم)

ومازلت حتى الآن لا أعرف السبب وراء تسميتهم بهذا الاسم .. إنه يتحدث عليهم وكأن تلك الرائحة لا تفارقهم أبداً ثم يضحك وأحياناً يشاركه كثير من الأولاد فى رأيه وضحكاته .

ظل بوبو ينظر نحوى بوجه متجهم يوحى بالفزع والبحث عن إجابة غير ممكنة ثم قال : أحيانا كثيرة أتمنى لو أن الله خلقنا مثل بقية الناس .

قلت : أى نوع من الناس ؟

أجاب : أولئك الذين لا يبالون بأى شىء .

تجولت بنظراتى حول مبانى المدرسة الشاحبة ثم تبادلنا القبلات ،

وقلت : إلى الأحد القادم .

قال بهدوء : لا تتأخرى .

ألقى بعلبة الورق من نافذة السيارة وانطلق مسرعاً فأبصرت شعره الكثيف وشعرت بشقة كبيرة فى بوبو ثم همست لنفسى : إنه على ما يرام .. سوف يكون على ما يرام رغم كل شىء !!.

الفصل الثانى

وجدت نفسى - دون أن أدرى - أعود من طريق آخر طويل وبعيد عن المدينة وشعرت بصوت حيوان ضخم يدوى فى أذنى.

مضيت فى طريقى عبر المناطق الصناعية التى تغذى البلاد بالثورة، وأبصرت بعض جرارات متجاورة كالتماثيل داخل فناء أحد المصانع، ثم ظللت أسير خلف شاحنة فحم ضخمة مسافة كبيرة وأنا أتأمل العمال السود فوقها فبدوا لى أكثر سواداً من الفحم ذاته .. كانوا مربوطين حول الكانون المشتعل خشية السقوط من فوق الشاحنة المسرعة، وعند اقترابى من ضواحى المدينة وجدتنى أسير خلف شاحنة أخرى محملة بالأثاث .. كان الرجال السود متعلقين بالأثاث بطريقة مستهترة وكأنهم لا يهتمون بالسقوط أو الموت وكان أحدهم يشد بإحدى يديه قبعة لاعب الجولف فوق عينيه ويستخدم اليد الأخرى فى معاكسة البنات السود اللاتى كن يضحكن لذلك أو يبدين التجاهل دون أن يبدو على أى منهن أئ شعور بالمهانة أو الانتهاك، وعندما أبصر الشاب الأسود ذو القبعة ابتسامتى لم يعرنى أى اهتمام.

توقفت عند مراكز البيع لشراء بعض الطعام المعلب

والسجائر ثم جلست إلى طاولة فوق رصيف أحد المقاهى وتناولت فنجانا من القهوة .

كان المكان مزدحما بالنساء الصغيرات اللاتى يرتدين البنطلونات والأحذية الغالية وكان الرجال يرتدون ملابس نهاية الأسبوع ويطلبون الآيس كريم للأطفال ، وكانت تشاركنى الطاولة سيدة كبيرة بملابس أنيقة وفراء .

قالت السيدة الكبيرة الأنيقة : لقد طلبت بعض الأشياء وعلبة سجائر فضية فإنه يحتاج إليها عندما يذهب للحفلات .

تساءلت بينى وبين نفسى : وهل يحتاج لعلبة سجائر فضية عندها يذهب لقاع البحر ؟

كانت تشبه أم ماكس تماماً فى أناقتها ولون بشرتها الأبيض ورشاقتها ولابد أنها تستخدم بعض المراهم والدهانات فى تحسين وجهها وشعرها وتلك الخطوط الجميلة فوق عينيها الزرقاوتين المتجعدتين . . كانت تحرك أظافر أصابعها الوردية بثقة وتبدو رأسها أيضاً كرأس السيدة فان دن ساندت الأرملة التى تستخدم القلم الملون المعلق فوق موقد النار بحجرة الجلوس .

كيف تركت أم ماكس كل ذلك الأثر بداخلى عندما كنت فى السابعة عشر من عمرى فى المرة الأولى التى ذهبت فيها إلى المزرعة مع ماكس ؟! . . كانت السيدة فان دن ساندت امرأة جذابة إلى حد بعيد وأذكر أننى فى ذلك الحين لم أكن أعرف أنه من الممكن أن تكون الحياة جميلة وسارة ، فالبوفيه تفوح منه

رائحة عطر فوّاح والحمامات تحوى بداخلها سجاجيد رقيقة وأباريق زيت وزجاجات كولونيا كبيرة يمكن لأى شخص أن يستخدمها.

قال ماكس يومئذ : نعم .. إن أمى تضع غطاءً مزركشاً فوق كل شىء حتى فوق مقعد دورة المياة وأيضاً فوق عقلها .

عرفت أيضاً أنه بمقدورك الحصول على ملابسك نظيفة وجافة دون بذل أى مجهود وأنك تستطيع أن تطلب كوباً من عصير البرتقال الطازج أو الشاى أو القهوة فى أى وقت تشاء، وكان الخدم من الرجال ذوى الأحزمة الحمراء يتحدثون مع السيدة فان دن ساندت بلغة الهوسا وكانت تتحدث مع الطاهى ذى القبعة الملونة بالأفريكانية (*) واللهجات العامية المحلية وكانت تقول : إننى أعرف أولئك الناس كما لو أننى منهم.

كان الضيوف يغارون منها بسبب أولئك الخدم المهرة الذين يعملون عندها وعند سماعى لعبارة الغيرة والحسد كنت أتذكر أبناء البلد الذين اعتادوا على الحضور من أماكن بعيدة لزيارة أمى والقيام على خدمتها وخاصة ذلك العجوز الذى كان يحضر مرة فى الشهر بانتظام وكانت أمى تقدم له بيديها فنجاناً من القهوة وهو جالس تحت الشجرة.. نعم، إننى أرى ذلك الآن بوضوح .

(*) Afrikaners : الأوربيون البيض الذين يعيشون فى جنوب أفريقيا .
Afrikaans : اللغة التى يتحدث بها الأوربيون البيض فى جنوب أفريقيا . (المترجم)

تزوجت أم ماكس سليلة إحدى العائلات الهولندية برجل يتحدث الإنجليزية دون أن يعلنا زواجهما وعملت بمختلف سفارات جنوب إفريقيا فى أوربا ورغم أنها كانت دائما تبدأ حديثها الخفيف السريع بكلمة «عزيزى» مثل طراز النساء الانجليزيات من جيلها إلا أنها ظلت تتحدث بالأفريكانية ، أما والدماكس ورغم اسمه الفلمنكى إلا أنه من أسرة إنجليزية هاجرت إلى جنوب إفريقيا مع بداية العمل فى مناجم الذهب وقد كان رجلاً نحيفاً ذا وجه أحمر كبير ومتألق وله شعر خشن ممشط للخلف وذقن مشقوق وقد كان بطريقة ما يتعامل مع بعض الناس الذين يكرههم أو يخافهم ولا يتورع عن الضحك مع أحد منافسيه السياسيين.

ومنذ اليوم الأول الذى ذهبت فيه إلى ذلك البيت كان الناس دائما موجودين حيث الحفلات ولعب البريدج فى المساء بالإضافة إلى الأصدقاء واجتماعاتهم التى تنتهى بالشراب وتناول وجبات خفيفة من الطعام وكان جوناس وألفريد بوشاحهما الأحمر يدخنان السيجار .

بعد أن أصبحت زائرة منتظمة كانت السيدة فان دن ساندت تتجول بيننا ونحن نشرب أو نتبادل الحديث وتقول : أيها الأولاد .. تعالوا وتناولوا بعض الطعام .

كنا نسمع كلامها ونمضى وسط الخدم بملابسهم السوداء ذات الأشرطة والدبابيس فوق البطون فتستطرد السيدة فان دن ساندت قائلة لبعض الضيوف : بالطبع تعرفون ماكس ، إنه ابنى

وهذه إليزابيث الصغيرة . ثم تقول لماكس : فلتأكل شيئاً يا حبيبى ولابد أن تعتنى بهذه الفتاة .. إنها لا تبدو سعيدة .

كبر ماكس وسط ذلك الجو لكنه كان يشاركنى عدم الإهتمام بحديثهم عن الأسهم المالية والسوق والكمبيالات التى يعتمدون فيها على العامل الرخيص وكنا نشعر بالغثيان حين يتحدثون عن البنوك والاستثمارات وتقسيم الأراضى وكيفية الاحتفاظ بأفضلها لهم .

كنت ما أزال جالسة إلى الطاولة فوق رصيف المقهى وحين رفعت فنجان القهوة إلى فمى أبصرت الحقيبة المفتوحة للسيدة الجالسة إلى جوارى والتى ذكرتنى بالسيدة فان دن ساندت وعائلتها ثم تذكرت حقيبتها الملئية بألعاب الصبية والتمائم والقلم الرصاص المطلى بماء الذهب وعلبة الدواء المرصعة بالجواهر .. كان ماكس ميتاً بالنسبة لعائلته منذ أن قبضوا عليه بتهمة التخريب مع بعض رفاقة من البيض حتى أن والده استقال من البرلمان وتوقفت أمه عن الحضور إلى المحكمة رغم رصدها لمبلغ كبير دفاعاً عنه.. كانت تأتى إلى المحكمة فى البداية وتجلس فى القاعة العامة بجوار بنى جنسها من ذوى اللون الأبيض بشرط أن تكون بعيدة عنى وذات يوم دخلت المحكمة بعباءة قصيرة ورقيقة من الدانتيلا وكان شعرها مصففاً بطريقة حديثة وترتدى حذاء وقفازاً متناسقين تماماً فعرفتْ مدى اهتمامها بأناقتها وتذكرت قول ماكس : إن أمى تضعٍ غطاء مزركشاً فوق كل شىء حتى فوق مقعد دورة المياه وأيضاً فوق عقلها .

جلست بثبات فوق المقعد الصلد وكانت أهداب جفونها المصبوغة تميل فى اتجاه وجنتيها ولم يحدث أن تطلعت حواليها خشية أن تصطدم نظراتها بنظرات زوجات وأمهات وأصدقاء بقية المتهمين البيض، كما لم تنظر إلى يسارها عبر الحاجز حيث الرجال السود الكبار بمعاطفهم الممزقة والنساء ذوات الأربطة اللاتى كن يجلسن بقلق ونفاذ صبر كالزنبرك .

رحنا جميعاً نتحدث فى فترة الراحة وكانت المجموعات الواقفة من ممرات المحكمة تعترض بعضها البعض فإذا بى فجأة أشم رائحتها وأجد نفسى فى مواجهتها تماماً فاضطرت أن تفتح فمها بعد سنوات من الصمت بيننا .

قالت : ماذا فعلنا لنستحق كل هذا ؟

أبصرت تحت عينيها وفيما بين شفتيها وذقنها صراعاً بين جمالها وعمرها المتقدم ولا أعرف كيف قلت : أنت تتذكرين اليوم الذى حرق فيه ملابس أبيه .

كان وقع الأقدام يحيطنا من كل اتجاه فشعرنا بالأرض تهتز من حولنا حين قالت : لا شىء فيما فعل، فكل الأولاد كذلك .

قلت : لا ،، إن في ذلك الكثير فلقد كان يعانى مشكلة فى المدرسة حاول كثيراً أن يتحدث بشأنها مع أبيه لكن أباه كان دائماً مشغولاً وفى كل مرة حاول فيها قول ما يريد كانوا يقولون له : اذهب الآن لأن أباك مشغول .

ضحكت ضحكة مريبة وسألت : عن أى شىء تتحدثين ؟

أجبت : ربما لا تتذكرين لكنك بالطبع تتذكرين محاولات

زوجك الكثيرة من أجل دخول الوزارة عندما كان عضواً بارزاً فى البرلمان وتعرفين جيداً كيف أنه كان مشغولاً إلى حد بعيد .

استدارت كما يفعل المرء عندما لا يجد شيئاً يقوله .

كانت عائلة فان دن ساندت تعاملنى كصديقة ليس من أجل شخصي وإنما لأجل ماكس بعدما رأوا اهتمام كلينا بالآخر خاصة وأن ابنهم لا يشغل وقته فى نادى المدينة، كما أنه ليس عضواً بحزب الشباب الوحدوى، وكانوا ينادوننى بالفتاة الصغيرة ليس لصغر حجمى وإنما دليل على وضعى الاجتماعى فقد جئت من مدينة صغيرة وكنت ابنة لأحد أصحاب الدكاكين، أما والد ماكس فهو من رجال الصفوة فى الحكومة العنصرية بالإضافة إلى إدارته لشركة تعبئة البلاستيك ومصنع السجائر .

لم يتعاملوا مع ماكس بجدية كافية حين كان طالباً وكانوا يسمعون عن أنشطته السياسية من الطلبة كما عرفوا بعضويته فى إحدى الخلايا الشيوعية لكنهم لم يقفوا كثيراً أمام ملابسه البوهيمية وعدم ظهوره فى حفلات المساء، لأنهم كانوا يرون كل ذلك مجرد لعبة لن تطول غير أنهم لم يسمعوا عن الوقت الذى كان يقضيه مع الطلبة الأفارقة والهنود فى بيوتهم بحى الأقليات بالمدينة، والذى لم يسبق أن ذهب إليه ماكس من قبل حيث قدموه هناك لسائقى الرجال البيض وعمال المصانع والنظافة الذين يستعرضونْ وجهات نظرهم وأفكارهم الخاصة ورغبتهم فى تحقيق مطالبهم التى لا تعرفها أو تشعر بها عائلة فان دن ساندت .

«نحن شعب جنوب إفريقيا» .. هكذا كانت تقول أم ماكس ولم تكن تعنى بذلك سوى الأفريكان والبيض الذين يتحدثون الإنجليزية وعندما طالب والد ماكس بوحدة جنوب إفريقيا من أجل التقدم والرخاء للجميع كان يعنى نفس الشيء مشيراً إلى رفع أجور البيض ومنحهم السيارات لكنه وأمثاله لم يذكروا شيئاً فى البرلمان عن السكان الأصليين الذين يمثلون حوالى أحد عشر مليوناً والذين يعانون من القلق فى حياتهم وعملهم ولم يعرفوا - منذ مجيئ الرجل الأبيض - أفضل من الكوخ الطينى بين الأشجار المتناثرة مكاناً لهم.

كانت القلة المتعلمة من السود مثار دهشة السيدة فان دن ساندت التى قالت وهى تفكر بالحشرات الزاحفة من شقوق حجراتهم وسط ضوء الشموع الضعيف : كيف استطاع بعضهم الارتقاء بنفسه ؟!

وعندما أصبحت حاملاً فى الثامنة عشرة من عمرى قالت فى محاولة لتهدئة ابنها : انظر إلي بطنها الصغير يا عزيزى لكن ذلك لا يهم فهو مجرد خطأ وهذا كل ما فى الأمر .. أليس كذلك ؟

ثم أعلنت أنها ستتهاون فيما حدث وكانت تشك فى علاقتى بماكس ولا تتوقف عن رفع حاجبيها وهى تلومنى بسخرية وتبتسم عندما نتناول الغداء معهم فى أى يوم .

تغيرت ملامح ماكس وبدا عليه الضيق فاستدار خارجاً من الحجرة دون أن يقدم لها التحية وعندئذ أسرعت خلفه إلى

حجرة نومه القديمة وقلت : إن ما قالته لم يضايقنى فلماذا أنت كذلك ؟

حدث ذلك مع بداية حملات التحدى المناهضة لحكم الأقلية البيضاء عام ١٩٥٢ وكان ماكس أحد الرجال البيض الذين زحفوا إلى مواقع الأفارقة المحظورة عليهم حيث شارك السود والهنود الاعتصام فى ميدان عام احتجاجا على سياسة التمييز العنصرى وبعد القبض على معظمهم تم الإفراج عن ماكس دون معرفة السبب لكنه قال : إن أبى بالطبع وراء قرار الإفراج وهو لم يفعل ذلك من أجلى أو من أجلٍ الحزب الوحدوى الشهير وإنما من أجل نفسه إذ ليس مناسباً لرجل مثله أن يكون ابنه فى السجن لأسباب تتعلق بالوقوف ضد قوانين حاجز اللون .

كان القوميون فى ذلك الوقت يمثلون قوة فعالة حتى أن فان دن ساندت لم تستطع الحصول على منصب وزيرة الخزانة وهكذا فكرت هى وزوجها فى ضرورة أن يتصرف ابنهما كرجل أبيض ومن أجل مصلحة البيض لكن وقتاً لاحقاً قد جاء لم يتردد فيه ماكس فى صناعة قنبلة .

كانوا يجتمعون فى عطلة نهايات الأسبوع ويستمعون بشمس الشتاء التى تدفىء العظام وتبعث على الاطمئنان وكانت زجاجات النبيذ والويسكى تعلو المائدة إلى جانب الفطائر وبراغيث البحر وعناقيد الزهور معبرين بذلك عن المستوى اللائق بالمواطن الأبيض ، وكثيراً ما رأيتهم وهم يقدمون البنسات لأولادهم كى يلقوابها فى صندوق التبرعات وقبعات

المتسـولين السـود ، ولم تكن القنابل تهـز الأرض تحت أقـدامـهم كمـا لم يتـأثروا بأحـداث الشـغب والمظاهرات وإطلاق الرصـاص غيـر أنهم - بطريقة مـهذبة - كـانوا يتـبـادلون عبـارات الأسف لذلك العنف غيـر الإنسـانى .. كنت أبدو وكـأننى واحـدة منهم وأنا جالسـة فوق مقعدى فى الشمس متناولة نصيبى من شرائح لحم الخنزير وبالنظر إليـهم رأيت استحـالة أن يشارك أحدهم فى الأحـداث ، وتذكـرت قولـهم عن مـاكس بأنه رجل مـجنون طيب وعدم معاملتـه بجدية كـافية منذ ذلك الخطاب المروع الذى ألقاه يوم زفاف أخته حين كنا ما نزال معاً ولم يكن عـمر بوبو يتـعدى شهوراً قليلة .

كنا فى ذلك الوقت نحـتل مكانًا فى عـائلة فان دن سـاندت وكـان زفاف أخت مـاكس مناسـبة عـامـة أصـرت فـيـهـا العـائلة أن يقـدم النخب إلى أختـه كـوينى وعـريسـهـا ، فلم يشـأ مـاكس أن يتـمرد على تقـاليـد العـائلة ، حـتى أصـابتنى الدهشة لاستـسلامه رغم رغبـتى فى ذهابه من أجل كـوينى التى يحـبـهـا والتى يفـوق جمالها كل الفتيات .

كان عليه أن يقـول شيئًا فى هذه المناسـبة فسـألته وأنا أضحك : أى شىء ستقول بالله عليك ؟

أجاب : لأجل سعادة العروسين .

لوحت بتمثال زجاجى وقلت : هاى !

قـدمت لى السـيـدة فـان دن سـاندت نقـوداً وقـالـت : من أجل شـراء فـسـتـان جـديد لك تحـضـرين به الزفـاف ويجب أن تخبـرى

ثيو عن ثمنه حتى يغتاظ من تبذيرى .

لم تستطع أن تقاوم رغبتها فى تأكيد قيمة الهدية السخية لكننى لم أخبرها بسعر الفستان الذى اشتريته بنصف المبلغ الذى قلته لها ودفعت الباقى للصيدلى وبائع الألبان .

جلست خلف طاولة العروس المزينة بالقرنفل والزهور وتناولت سمك السردين المدخن ثم شربت الشمبانيا وأنا أخفى رعشة من الخجل خلف ابتسامة رقيقة متبادلة مع العم الجالس إلى جوارى ، وعندئذ نهض ماكس للحديث ورغم نحافته وقصر قامته إلا أن قبضة يده قوية وله عينان صغيرتان زرقاوان موروثتان عن أهل أمه تشعان بقوة وتوحيان ببعد النظر .. كان يرتدى بدلته السوداء وربطة العنق الحريرية التى أهديتها له في يوم ما ، وكانت ابتسامته الغريبة الغاضبة تذكرنى دائماً بحركة فم حيوان ماكر .. وقف أمام المائدة دون أن ينظر نحوى ودون أن يلتفت إلى أى شخص آخرٍ وراح يتحدث فى البداية حديثًا صاخبًا ثم تمالك نفسه قائلاً : لقد اختارت أختى ألن زوجاً لها من أجل أن يتمتعا معًا بحياة سعيدة ومن الطبيعى أن نتمنى لهما حياة هانئة خاصة وأننا لا نملك سوى التمنيات رغم أن كل شيء يتوقف عليهما .

ساد الضحك وراحوا يتبادلون النكات ويشيرون إلى بعضهم البعض لكن ماكس لم يدرك شيئًا وأضاف قائلاً : أنا لا أعرف ألن على الإطلاق ، كما أن معرفتى بأختى ليست كافية فلنترك الأمر لهما ، مع تمنياتى بحظ سعيد فهما على أية حال

من الشباب وأختى جميلة.

صارت ضحكاتهم أكثر وضوحاً حتى لم يعد صوت ماكس مسموعاً لكننى فهمت أنه يتحدث عن جمال أخته ومدى تألقها، ومن خلال قسمات وجهه الخالية من التعبير اعتقد الضيوف أنه لا يهتم بوجودهم فلم يتوقفوا عن الضحك بين كل وقفة وأخرى، وراح ماكس يواصل حديثه : لكن نوع الحياة والطريقة التى سيعيشان بها بين الناس .. آه .. إنها أشياء أخرى يختلف المرء بشأنها ويختلف الحديث عنها .. أعرف أن الذين يعرفون كوينى منذ ولادتها وأولئك الذين يعرفون ألن لم يجيئوا إلى هنا إلا بشعور طيب ولقد تبادلوا الشراب معاً وهم يرددون :

(فى صحتك ياكوينى وأنت يا ألن) .. لكننى أود أن أقول لهما : لا تجعلا العالم يبدأ وينتهى فى مثل هذا الجو وهذا النادى الرياضى وبين أصدقاء والديكما الذين يمثلون رئيس مجلس الإدارة المحلى والوزراء السابقين (لا أريد التعرض للوزارة) .. إننى لا أعرف الأسماء لكننى أعرف الوجوه وأريد أن أسألكم عن الذى شيد هذا النادى والذى جعل هذا البلد كما هو عليه (تصفيق حاد بقيادة شخص ذى كف كبير) .. إن العالم أيضاً لا يتمثل فى هذا المكان فقط وإنما هو خارج هذا المكان (تصفيق مرة أخرى) فلا تبقيا بالداخل حتى لا تتصلب الشرايين الخاصة بكما كما تصلبت شرايينهم .. إنهم مصابون بالجلطة رغم عروقهم المغطاة بالفراء والطعام الفائض عن حاجتهم (تبعثر

التصفيق فى أرجاء المكان كما يحدث بين الحركات الموسيقية فى الكونشرتو) .. يجب أن تحذرا من التصلب الأخلاقى والتزمت وقسوة القلب وحذار من العقل الضيق الذى لا يفكر إلا فى زيادة الأرباح .. إنهم يوزعون البطاطين المجانية فى الشتاء لسكان المواقع فى نفس الوقت الذى يرفضون فيه أن يدفعوا أجوراً للناس تساعدهم على العيش ونحن الصغار لا نستطيع أن نفعل شيئاً .. إنها طريقتهم الأنيقة فى الاعتداد بأنفسهم .

تلاشت ضحكاتهم وسمعت العم الجالس إلى جوارى يهمس : لقد ورث موهبة الحديث عن أبيه .

كانوا يبتسمون ببلاهة وعدم إدراك وهم يتظاهرون بالاهتمام كما يحدث عادة حين يسمعون حديثاً لا يتناسب مع أهوائهم وميولهم وعندئذ استطرد ماكس : نعم، التصلب الأخلاقى، و ما أريد أن أحذركما منه مع ضرورة توفر قليل من الشعور والتفكير وهذا كل ما أريد قوله .

توقف ماكس فجأة عن الحديث بعد أن تملكه الحذر ممن حواليه ثم جلس وساد الهدوء لحظة قصيرة بدأ بعدها صاحب الكف الغليظ فى التصفيق فصفق وراءه الآخرون وعندئذ قفز شخص ما من مقعده إلى مائدة العروس وأخرج زجاجته ثم قدم نخب العروسين الذى نسى ماكس أن يقدمه وقال : فى صحة العروسين .

ردد كل الجالسين فى المقاعد المذهبة : فى صحة العروسين .

أبصرت وجوهاً تبتسم خلف زجاجات الخمر ربما سخرية من

حديث ماكس وربما خوفًا منه، وكانت عبارات التهنئة تملأ المكان ثم بدأت الفرقة الموسيقية فى العزف والغناء : (من أجل زوجين سعيدين)

كان حديث ماكس مختلفًا عن كل ما سمعوه من قبل وبدت السيدة فان دن ساندت وهى تنتقل برشاقة عبر المائدة لاستقبال التهانى والقبلات وكأنها تدفن خجلها تحت جلدها .

ماكس المسكن .. حبه لكلمة تصلب أخلاقى .. من أين جاء بهذه الكلمة وكل الكلمات المتشابهة التى ظل يكررها ؟.. إنها مثل الكلمات التى كنا نسمعها فى مدرسة الأحد القديمة حيث كانوا يقولون لنا : إن العالم هو حديقة الرب ونحن جميعًا أزهارها .. إلخ .

لم نستطع أن نغادر حفل الزفاف فتبادلت الرقص مع ماكس للتغلب على الضيق الذى أصابنا، وتظاهرنا بالألفة والتضامن مع الحاضرين ثم حاولت أن أقول له شيئًا عن حديثه الذى ألقاه لكننى لم أستطع غير أنه شعر بخجل ما جعله عابساً لبضعة أيام لاحقة.

كان لتأثير البيت والمدرسة دور كبير فى عدم فهم كوينى لحديث أخيها فقالت بغضب : ياله من حديث متشدق فى يوم زفافنا .

وأضافت : أحسست وأنا أسمعه وكأننى فى المدرسة أو الكنيسة.

ثم قالت لأخيها : أتعتقد أنه من حقك أن تنصحنى لمجرد

أنك تزوجت قبلى ؟

كنت ما أزال أقود سيارتى فى طريق العودة حين تذكرت كل ذلك وقد أصابنى الارتباك من حديث ماكس وعباراته الغريبة لكن ابتسامة غريبة طافت بشفتى لم أنتبه لها إلا حين استوقفنى رجل المرور وهو يرد الابتسامة .



الفصل الثالث

فتحت باب الشقة فسمعت جرس التليفون الذى توقف عن الرنين قبل أن ألتقط السماعة وساورنى شعور أكيد أنه جراهام ثم أبصرت باقة من الزهور مغطاة بورق السوليفان فوق المائدة .. ربما أخبر بائع الزهور بإرسال الزهور إلى هنا بدلاً من إرسالها إلى جدتى لكننى قرأت اسمى مكتوباً فوق كارت صغير فعرفت أن هذه الباقة خاصة بى وأنه أرسل زهوراً أخرى إلى السيدة العجوز ولا بد أن عامل النظافة سامون كان يعمل فى الشقة حين جاء جراهام وهو الذى وضع الزهور بالداخل أمام المرآة .

تناولت الكارت وقرأت : مع حبى .. ج . جراهام

شعرت بنسمات هواء باردة تنبعث من زهور اللبن الثلجية الشبيهة بالبصل فى جذوعها وأوراقها ولونها الأخضر .. إن جراهام يعرف مدى عشقى لهذا النوع من الزهور وحبى للزنابق التى اشترينا مثلها عندما تقابلنا لمدة أسبوع فى الغابة السوداء بأوربا فى العام الماضى .

حدثتنى نفسى : هل ثمة خطأ فيما كتبه على الكارت ؟

لا .. لا خطأ فى كلمته البسَطة   لقد انتهز فرصة وجوده عند بائع الزهور من أجل جدتى فقام بإرسال بعض الزهور لى خاصة وأنه لا يفعل ذلك إلا فى أعياد الميلاد والمناسبات فقط، ولكن هل هى فرصة وجوده عند بائع الزهور أم أنه فعل ذلك بسبب وفاة ماكس ؟ .. أوه. يا ألهى الطيب، لو كان الأمر كذلك لأصبح أمراً مؤسفاً لأنه ليس مضطراً لذلك فلقد مارسنا الحب ليلة أمس رغم عدم وجود شىء خاص بيننا سوى الاستسلام للعادة .. إن جراهام يفقد السيطرة على عقله حين يذهب للمحكمة فى اليوم التالى .

دق جرس التليفون مرة أخرى أثناء انشغالى بوضع الزهور فى الماء فرفعت السماعة وقلت : لقد عدت لتوى من الخارج والزهور جميلة وهى المرة الأولى التى أرى فيها زهور اللبن الثلجية هذا العام.

سألنى : كيف حال بوبو ؟

أجبت : كل شىء على مايرام فهو ولد متفهم جداً وحساس وشكراً للرب. تمنيت لو يخبرنى أنه قادم على الغداء لكننى لم أتفوه بكلمة تؤدى إلى ذلك لأننا متفقان بشأن ألا يعيش أحدنا فى جيب الآخر، وإذا كان لابد أن أطلب ذلك فيجب أن أتوقع منه فعل نفس الشىء فى أوقات قد لا تكون مناسبة ومن المحتمل أنه تناول الغداء فى بيت المحامى الشاب الذى يلعب معه الجولف وزوجته المحامية الجميلة اللذين أستمتع بصحبتهما وأستطيع زيارتهما فى أى وقت لكننا أمام الناس من أمثالهما وأمام بقية

زملائه لا نحب أن ينظروا إلينا كزوجين .

قال جراهام بعد أن أخبرته عن بوبو : يوجد خبر عن ماكس فى الطبعة الأولى من صحيفة المساء فهل ترغبين فى سماعه ؟

لا .. أخبرنى فقط بمضمون الخبر .

تنحنح جراهام كما يفعل دائماً قبل قراءة أى شيء بصوت عال أو مثلما يفعل عند بداية دفاعه في المحكمة وقال بصوته العذب : إنه خبر قصير ولم يذكروا شيئاً عنك وإنما عن والديه فقط .. لقد خرجت القضية إلى النور ويقولون أنه كان شيوعياً رغم أننى لا أتذكر ....

قاطعته قائلة : لم يسبق أن أشاروا إليه هكذا .

استطرد قائلاً : نجح فريق الغطس فى انتشال السيارة وكانت توجد حقيبة مليئة بالمستندات والأوراق في المقعد الخلفى لكن التلف قد أصابها من المياه حتى لم يعد ممكناً تحديد طبيعة هذه الأوراق والمستندات .

- ذلك أفضل .
- ولا شيء آخر سوى عمل والده فى البرلمان.
- ألم يذكروا شيئاً عن بوبو ؟
- لا .. من حسن الحظ .

قلت فى محاولة منى لتغيير الموضوع : كان جميلاً فهل استمتعت باللعب ؟

أجاب جراهام : لقد هزمنى بوكر للمرة الثانية هذا الأسبوع.

كان جراهام وصديقه المحامى يلعبان الجولف معًا وكثيراً ما كانا يتشاجران ويتبادلان الاتهامات حتى أننى تعجبت لتلك الطريقة التى يهاجم بها المحامون بعضهم البعض بكل قسوة ثم يجلسون سوياً كالأخوة فى رقة ووداعة أثناء راحة الشاى .. إنها المهنة الواحدة بكل أساليبها الغريبة والفزع الذى يصيبنى عند رؤيتهم وهم يشربون الخمر معاً فى نادى الجولف.

مارسنا الحب معًا بالأمس أمام المدفأة فجاءنى صوته على التليفون متحرراً وهو يتحدث عن أشياء عادية فتذكرت أنه ظل صامتًا وهادئًا فوق جسدى مدة طويلة فى الليلة الماضية .

تحدثت مرة أخرى عن الزهور قبل انتهاء المكالمة ولم تراودنى أية رغبة فى الخروج وإنما شعرت براحة فملأت الفازة بالماء حتى نصفها وألقيت بالورقة والسيلوفان فى سلة المطبخ، ثم وضعت الطعام الذى اشتريته فى الثلاجة .. جلست فى الشرفة فوق مقعدى المصنوع من البلاستيك والألومنيوم فى مواجهة الشمس وأشعلت سيجارة وفكرت : إن كثيراً من الأشياء التى يفعلها المرء من أجل الآخرين لا تمثل شيئاً ولا تتعدى كونها عادة سيئة مثل السجائر خاصة وأننى لم أفكر فى الزواج مرة أخرى .. لا أعتقد أننى سأتزوج مرة أخرى لكننى أتحدث عن ماكس على أنه زوجى الأول مما يعنى أننى أتوقع الزواج من آخر .. حسنا، إن المرء فى الثلاثين لا يستطيع التأكد تماما من أفعاله .. لكننى فى الثامنة عشرة كنت متأكدة بأننى سأتزوج وأنجب طفلاً وهذا ما حدث بأسرع مما كنت أتوقع رغم أن ماكس لم يكن مطابقًا

لمواصفاتى إلا أن شيئاً ما فى أعماقى توافق مع الطراز الذى كان عليه .

كان الزواجِ سبيلاً لأن أعيش حياة المرأة مهما كانت هذه الحياة وطريقاً للابتعاد عن حياة الوالدين وأساليبهما .. لقد عشت وسط النساء وبخاصة نساء الطبقة المتوسطة ورأيتهم وهن يذهبن للسوق ويتولين شئون عائلاتهن براحة ودون استياء لكننى كنت أريد العيش مع رجل غير أبى .. رجل يمثلنى .

عرفت جراهام فى يوم المحاكمة حين كنت مطلقة من ماكس وقد قالوا لى أنه الرجل المناسب لقضيتى غير أنه لم يستطع أن يقدم أهمٍ وقائع الدعوى فانتقلت القضية إلى شخص آخر لكنه ظل مهتماً بها وكثيراً ما ساعدنى عندما كان ماكس فى السجن دون أن يوجه لى أية أسئلة فأحسست معه وكأننى أمام طبيب يعرف كل شيء عنى .

كان جراهام متزوجًا من زميلته التى اعتاد أن يتجول معها منذ أن كانا زميلين فى المدرسة والتى ماتت من التهاب فى أغشية الرأس وكانت أصغر مما أنا عليه الآن وما تزال المفارش - التى كانت تطرزها بنفسها - باقية فى منزله .

احتفظت أنا وجراهام بجانب النزاهة فى العمل ولم نستغل عملنا فى تحقيق المال أو تأدية الخدمات لقوم من ذوى لون معين، فقد كان جراهام يدافع عن المتهمين فى قضايا سياسية دون النظر إلى ما قد يناله من ترحيب من أجل التصدى لمثل هذه القضايا، بينما كنت أعمل أنا فى تحليل البول والبراز والدم

لاكتشاف البلهارسيا والدودة الشريطية والكلوسترول فى معهد البحث الطبى ، ولقد كان من دواعى سرورى أننى اكتشفت أن الدم والخراء والبول هو نفس الشيء لدى مختلف ألوان البشر بغض النظر عن لون بشرتهم أو المكان الذى جاءوا منه .

استمتع كلانا بالآخر حين كنا معًا بأوروبا فى العالم الماضى وقد تقاسمنا نفس الحجرة ونفس السرير فى ألفة ومودة دون أن يترك أحدنا الآخر إلا بعض الوقت ولم يساورنا أي شعور بالغضب أو السخط ، وبعد عودتنا عشنا معاً كما تعودنا بدون أن نمارس الحب أحيانًا لمدة أسبوعين ينشغل فيهما كل منا بأمور الحياة .

كنت جالسة بشرفتى فى مواجهة الشمس ولم أكن فى حاجة إليه .

هل هو الحب أم أنه مجرد اتصال جنسى ؟ .. إنه شكلٍ جديد من أشكال العلاقة .. شكل لائق بما يكفى لا يؤذى أحداً ولا يسبب لنا الأذى لكننى أعتقد أن جراهام سيتزوجنى إذا أردت ذلك وعندئذ سيتغير كل شيء .. هل باستطاعتى أن أجد أفضل الرجال فى هذا الوقت وهذا البلد ؟ .. إن جراهام لا يوحى بشيء ويعيش كرجل أبيض .. إنه يعيش بقناعاته الخاصة ويفعل ما درج على فعله ودائمًا ما يفى بوعوده ، وعندما أتحدث معه فى التاريخ والسياسة أعرف مدى تردده فى قول الحقيقة لكنه حين يكون داخلى كما حدث فى الليلة الماضية فإنه يكون

قـويًا بل أفـضـل من أى شـاب فى مـثل عـمـرى حـتى أنه يـظل بداخلى أحيـانًا لفترة طويلة وهـو منتصب بقوة لدرجة أننى أكاد أشعر بقضيبـه الغليظ عندما أضع يدى فوق بطنى .. إنه يخترق جـسـدى ويملأنى ولا يتكلـم وهو يغلق عـينيـه ويضم جـفـونه الرقيـقة وعندما يصل إلى الذروة أجد نفسى ممسكة به وكأننى أخنقه فأشعر به دافئاً وكبيراً .

هكذا يكون جراهام لكننى أجلس الآن فى شرفتى مستمتعة بشـمس منتـصف النهـار ولا أفكر فى ذلك إلا من خـلال حـيـز صغير فى تفكيرى وعقلى الباطن .

شعرت بالدفء فغلبنى النعاس وكـان سرب من الحمام ينقر الأرض أمـامى ولـم أسـتطع رؤية الطفلين وهمـا يسـددان طلقـات المسدس المائى إلى بعضـهما البعض .. كانت إحدى الطلقات قد وصلت إلى قدمى وكان بعض الرجال يفترشون الحشائش عند الرصيف .. إنهم من الرجال السود الذين يرتدون زى العمل .. إنهم يفـتـرشـون الأعـشـاب بجـوار دراجـاتـهم التى يعـملون بـهـا ويمارسون احتجاجهم وهم يتبادلون الحكايات عن الشركات .. كانوا يشربون البيرة من الصناديق الحمراء الكبيرة فى الشمس .. كنا جميعًا فى الشمس فعرفت أن ثمة شيئا يشترك فيه الناس جميعًا وعرفت أيضًا السبب فى عدم حاجتى لجراهام أو أى شخص آخر لأننى أنتمى لأولئك الناس الذين يشاركوننى لحظات التفكير والتأمل والتمرد ثم شعرت أخيراً أننى فى وطنى بالرغم من كل شيء .

كان إيقاع حديثهم الذى أعرفه جيداً يتصاعد بشكل متقطع ومتفرق ولم أستطع أن أفهم كل كلامهم وتساءلت بينى وبين نفسى : إنهم لا يملكون وقتاً كافيا لأى شيء سوى الرقاد فوق الحشائش .

دخلت شقتى وتناولت كسرة خبز وضعت بداخلها شريحة من لحم الخنزير وما أن انتهيت منها حتى استبد بى التعب وغلبنى النعاس فرقدت فوق الكنبة المجاورة لسرير بوبو وكان الجو دافئاً تحت البطانية.

لم أستطع النوم تماماً وكلما فتحت عينى وتجولت بهما فى أرجاء الحجرة أبصر الأعشاب البحرية وهى ترتفع من أعماق المياه المتقلبة التى اندفعت إلى أنف ماكس وملأت فمه حين أراد أن يتنفس .. لقد اخترق الماء المالح البارد كل جسده وكان يقذف من فمه وأنفه فقاعات الحياة الأخيرة قبل أن يغوص إلى أسفل حيث الأعشاب الضارة مع حقيبة الأوراق التى لا يعرف أحد محتوياتها فهل هى مجرد أوراق أم أنها بعض الخطط والخطابات ؟..

لا أحد يعرف .. لقد نجح ماكس فى الموت !.

كنت ما أزال راقدة فى الحجرة حين ملأت الدموع عينى ولم يكن بكائى بسبب وفاة ماكس وإنما للطريقة المؤلمة التى مات بها .. تفتحت الزهور بجوارى فانتشرت فى الحجرة الدافئة رائحة عطرة وعندئذ شعرت بأننى مازلت على قيد الحياة .

كنت أعرف كل شيء عن ماكس والمعرفة تعنى الغفران

لكنها أبداً لا تعنى الحب الذى يحتاج لمزيد من المعرفة .. لقد ترك ماكس الجامعة عندما تزوجنا والتحق بوظائف عديدة ومختلفة لكنه لم يستمر فى أى منها مدة طويلة وكنا مشغولين بأشياء أخرى كثيرة كالاجتماع فى حجرات الناس من أمثالنا وفى أحياء السود وفى الهواء الطلق وكنا نشترك فى المظاهرات تعبيراً عن رفضنا لسياسة التمييز العنصرى .. كنا مجموعة قليلة تتكون من الهنود والأفارقة والملونين والبيض من بينهم سولى وديف وليلى وفاتيما وأليس وتشارلز وكانت فاتيما تداعب بوبو وتهتم به، أما ديف فكثيراً ما كان يضحك بسبب حالة ماكس المزاجية المتقلبة وكنا جميعاً نحلم بمستقبل ما يحتاج لقدر من الشجاعة لم نكن نعرف مقدارها .

ترك ماكس وظيفته الأولى عندما أراد الاشتراك فى مؤتمر الاتحاد التجارى ولم يسمحوا له بإجازة لمدة ثلاثة أيام أما الوظيفة الثانية فقد تم فصله منها بعد أن استغل ساعات العمل مرات كثيرة فى إقناع موظف الآلة الكاتبه بنسخ بعض الأوراق الخاصة به لكنه استطاع فى كل الوظائف أن يحصل على ما ساعدنا فى الاستمرار .. كان ماكس يقرأ فى السياسة أثناء فترة الجامعة نتيجة لشعوره بضرورة المعرفة وكان يرى فى دراسته للفنون انطلاقاً للعقل والخيال على عكس والده الذى قال : إن دراسة الفنون على أية حال لا تضر بالتجارة والمحاسبة وسوف يلتحق بإحدى شركاتى .

كانت الاجتماعات وحلقات النقاش تبدأ بعد الانتهاء من

ساعات العمل وتستمر حتى وقت متأخر من الليل وهكذا لم يستطع ماكس أن يجد وقتاً لمتابعة دروسه ومواصلة دراسته وعندما بلغ بوبو شهره الخامس عدت لعملى من جديد وكانت «دافن» الرقيقة والقادمة من جوها نسبرج تقطن معنا للعناية بالطفل كما كانت تعتنى بماكس وهو صغير فى بيته وعندئذ فكرت جدياً فى عودة ماكس للجامعة والتفرغ لدراسته، لأن عودتى للعمل تعنى عدم حاجتنا للسيدة فان دن ساندت مرة أخرى بعد أن كنا نطلب منها المساعدة من حين لآخر وبخاصة بعد ولادة بوبو .. فكرت فى عمل إضافى بالليل بعد الانتهاء من وظيفتى النهارية فتناقشنا فى الأمر ولأننى لا أجيد العمل على الآلة الكاتبة قلت فى النهاية : سأعمل مرشدة تقود الناس إلى مقاعدهم فى السينما رغم ضآلة ما يدفعون فى مثل هذه الوظيفة .

راقت له الفكرة وقال معلقاً : ليز سوف تعمل فى السينما .

قلت : ولم لا ؟.. تسريحة شعر مناسبة وبطارية .

كان عملى فى الشركة الخاصة بعلم الأمراض قد أتاح لى فرصة عمل أخرى أفضل من العمل فى السينما حين طلب منى أحد الأطباء صياغة وكتابة بعض ملاحظات البحث وكان العائد المادى أكبر كثيراً من العمل فى السينما، بالإضافة إلى إمكانية القيام بهذا العمل فى البيت إلا أن ذلك هو ما أثار غضب ماكس حيث كانت ملاحظات الدكتور فاربر تملأ الشقة الصغيرة الضيقة وتشغل مكان أوراقه وكتبه الخاصة حتى كاد يفقد

اهتمامه بعملى الإضافى.

لم يستطع ماكس أن يتمرد تمامًا على عائلته ومن هم على شاكلتهم ولم يصل إلى حد الإشباع فى اقترابه من الآخرين، لأن زواجه بى جعله دائم الحاجة لعائلته .. كنت مدركة لتمرده وشوقه الجارف فى الاقتراب من الآخرين، لكننى فشلت فى مساعدته فلم يستطع - رغم انتمائه إلى خلية شيوعية فى الجامعة - أن يتبنى الخط الماركسى فى نشر أفكار الأفارقة الخاصة حتى عندما بدأ الحزب الشيوعى يعمل مرة أخرى فى الخفاء ورغم نشاطه الواضح إلا أنه لم يستطع فقد كان صغيراً وذا تجربة متواضعة .. حاول أن يفعل شيئاً بعد حملة المعارضة فالتحق بالحزب الليبرالى الذى يدين العنصرية ثم شارك الأعضاء فى مؤتمر الديمقراطيين غير أن الأفارقة أنفسهم لم يتعاملوا مع الحزب الليبرالى بجدية لكن تمرد ماكس على مجموعة البيض جعلهم يشعرون بحسن نيته رغم إيمانهم بأن أى حركة إفريقية تبحث عن التأييد الجماهيرى لا يمكن أن تضم أعضاء من البيض وكنت أيضاً من الأعضاء المشاركين فى مؤتمر الديمقراطيين لكننى لم أعمل مع ماكس وإنما مع المجموعة السرية التى تطبع النشرات للمؤتمر القومى الإفريقى وما إلى ذلك .. عرفت عندئذ أن المرء يكتسب نوعًا من الصداقات القوية الغريبة عندما يعمل بنفزع فى الخفاء وهو يخشى هجمات الشرطة وكان إيمانى قويًا بما أفعل وبالناس الذين أعمل معهم ولم تفارقنى الشجاعة الكافية التى جعلتنى على مستوى ما كنا

فى حاجة إليـه، لكن وجود بوبو بعد ذلك حد من نشاطى ولم أستطع - كالآخرين - أن تكون أنشطتى السياسية فى المرتبة الأولى لأن فكرة اعتقالى أنا وماكس فى وقت واحد كانت تعنى أن تتولى السيدة فان دن ساندت أو والداى أمر بوبو وكان ذلك بالنسبة لى استسلامًا وتنازلاً حقيقيًا كما أن ماكس لم يكن قادرًا على تلبية احتياجات أى شخص آخر حتى لو كان ابنه وهذا ما كانت تدعوه أمي بالأنانية، ورغم إعجابها بأفكاره إلا أنها كانت تراه مارقًا ومجنونًا .. نشأ ماكس فى وسط ارستقراطى ولم يكن يذهب إلى المدرسة أو يعود منها إلا فى سيارة خاصة وكانوا يقدمون له الخدمات وكأنه أحد الأمراء وبعد زواجنا أصابنا الفقر لكنه لم يتنازل عن احتياجاته الضرورية القليلة كشراء زوج من الأحذية وكان يغضب بشدة وبطريقة متعجرفة حين يطالبنا أصحاب المحلات بسداد ثمن الكتب أو البراندى ويطلب منى التعامل معهم .. إن ماكس لا يعرف التعايش مع الآخرين، وكان يجلس صامتًا فى حجرته بالمزرعة يواصل القراءة لمدة ساعات طويلة ويفكر فى متاعب الإنسان .. لقد اعتاد على الذهاب إلى فورد سبيرج بمصاحبة بوبو تاركًا له فرصة اللعب مع الفتيات الصغيرات فى البيوت الهندية الكثيرة وفى طريق عودته كان يروق له السير على الأقدام فعرف معه بوبو مجموعة من الناس لم يكن من اليسير معرفتها. وذات مرة اتصلت بى فاتيما لتخبرنى برغبة والدة متعهد عربات الكارو فى معرفة رقم تليفونى .. كان ماكس قد

ترك بوبو عندها وحين أزعجها ببكائه ولم تستطع أن تقدم له شيئًا طلبت الاتصال بى .. كانت السيدة ماريا روبرتس امرأة رائعة فحاولت أن أشرح لها أن ثمة شعوراً طبيعيا بالمسئولية تجاه الغرباء أيضاً وليس تجاه العائلة الخاصة والأصدقاء فقط، وأخبرتها أن بوبو هو السبب فى أن أعضاء المنظمة لم يستطيعوا الاعتماد علينا .

قالت : أوه .. لكننا نستطيع الاعتماد عليك .

شعرت بالخجل حين أكدت قدرتى ولم أستطع التخلص من خجلى إلا بعد وقت ليس بالقليل .

لم تكن الوظيفة بالنسبة لماكس سوى مرحلة مؤقتة تفى بالحاجات الضرورية، وذات يوم طلبوا منه أن يكتب شيئًا للصحافة بعدما رأوا بعض كتاباته الجيدة وشعروا برغبته أن يكون محرراً فى الصحف لكن القائمين على السلطة التنفيذية كانت تساورهم الشكوك تجاهه خوفاً من استغلال أفكاره فى الكتابة وخشية أن تتسبب هذه الأفكار فى تورطهم .

كان يجلس فى اللجنة هادئًا بملابسه القذرة ولحيته الشقراء واضعًا يده المتوتره فوق فمه وكان متهمًا من الجميع بالرغبة فى الفعل لكن أصحاب الخبرة كانوا يؤمنون بلا جدوى المخاطرة .. كان ماكس ينظر إليهم بعينيه المشرقتين ويقول فى النهاية بعد أن فهم خطة العمل : سوف أذهب للاتحاد التجارى غداً وسوف أتحدث معهم على أية حال لأنه يجب أن نقترب من مجموعة الشباب من أمثال تلولو وموجادى وبراين دلاليزا .

لم ينتبه الآخرون لكلامه فقد كانوا يعرفون ما يجب عمله والناس الذين يجب الاقتراب منهم .

كان ماكس فى حاجة ماسة لمزيد من الخبرات والاحتكاك بالآخرين للخروج من دائرة كتب التاريخ والفلسفة والنقد الأدبى التى كانت مفروضة عليه والتى قرأتها كلها أثناء انشغاله فى الاجتماعات وللتخلص من ذاتيته وعاطفته الجياشة وقدرته الهائلة على التخيل التى هى أهم مميزاته فى الكتابة .. كانت قدرته على الإقناع بلا حدود فكان من اليسير أن يصبح محاميًا مرموقًا وينعم بعضوية النادى مع ذوى البشرة البيضاء وربما كانت قدراته تؤهله لأن يكون رجل سياسة من الطراز الأول أو ثوريًا عظيمًا إذا ما سنحت له الفرصة أو امتلك وقتًا إضافيًا ولكن كما قال فرانز كافكا : «إمكانياتى مؤكدة وإنما تحت أى حجر تختبىء» .

عاد ماكس ذات يوم للمنزل بصحبة رجل مبتل بالماء يدعى سبيرزكواب .. إنه ناظر المدرسة السابق الذى يتحدث بصوت مبحوح وناعم .

قال لماكس : إن الشيء الخطير يتمثل فى عدم رؤيتنا لما سيترتب عليه نضالنا كما أننا لا نفكر جديًا فيما يحدث هناك فى الجانب الآخر .. يجب أن تعرف طريقك أيها الرجل فإذا ما سألت أحدًا من الشباب فى المدينة عن حياة الاستقرار مع البيض فإنه سينظر إليك نظرة حالمة من عينيه وهو يفكر بالحصول على سيارة ووظيفة ومكتب وهذا كل ما فى الأمر .. إنهم

يحلمون بتصاريح المرور التى لا يحملها السود ولا يعرفون شيئًا عن أفكارنا ولا يؤمنون بمجتمع شيوعى، ولذلك فالحلم بعيد ويصعب تحقيقه .. إنهم يريدون فقط التحكم فى كل المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية وامتلاك زمام الإنسان الأسود فى بلده المستعمرة السوداء بينما نطالب نحن بتأميم البنوك والمناجم والثروات المعدنية الهائلة وتحويلها إلى ملكية للشعب، وهذا فى حد ذاته مجرد حلم جميل لا يتعدى كونه قصيدة رائعة إذ كيف يمكن أن يتم التوزيع العادل وهل خطر ببال أحد أن يتحدث فى هذا الشأن؟ ولماذا يجب علينا أن نستورد الحل من الشرق أو الغرب ؟

لم يتوقف سبيرز عن الحديث في ذلك اليوم وهو يستعرض كل شيء عن الاشتراكية والتقاليد والأعراف الإنسانية وفى يوم لاحق سمعته يقول :

نحن نريد دولة ديمقراطية جديدة، نعم .. إن روحٍ القبيلة والتمسك بالقبلية يجعلان كل شيء دمويا وصعبا وها هى الحكومة البيضاء تسير فى اتجاه القضاء على القبلية إلا أنها تساعد على تقويتها وإبرازها مرة أخرى فى صراعها مع البانتو .. يجب أن نتناول العناصر الديمقراطية فى القبيلة ونستخدمها فى اكتشاف مذهب جديد للاشتراكية العلمية .. اشتراكية نابعة من إفريقيا ولأجل إفريقيا فنحن لسنا فى حاجة لتبنى معتقدات الغرب أو الشرق كما أننا نعى مساوئ الاحتكار ونؤمن بالإنسان والأرض التى هى أرض القبيلة .. يجب أن

نعمل من أجل رفاهية المجتمع ونعتنى ببعضنا البعض وبأطفال بعضنا البعض وهذه هى الروح الجديدة التى يجب أن تسود الأمة .. أليس كذلك ؟ .. إن روح الاشتراكية التى نريدها لن تأتى إلا من الداخل .

توقف ماكس فجأة عن الانتباه وراح يقلِّب فى الكتب وكومات الصحف ثم قدم له كتاباً فقال سبيرز : نعم .. نعم .. أعرف لكن الاشتراكية الإفريقية لا يمكن أن تكون نتاج تفكير رجل واحد وإنما ينبغى أن تتحقق عن طريق كثير من المفكرين الذين نفتقدهم .. إن لدينا كثيراً من الأبطال السياسيين لكنهم ليسوا مفكرين وعلينا أن نناقش ذلك يا رجل .

كان ماكس يملك طريقته فى النقاش والمحاورة وكان يعبر بكلمات قليلة عما يريد قوله ، فوقف أمام الرجل الذى كان يرتدى معطفاً قذراً يحلو له أن يرتديه دائماً حتى فى أكثر الأيام حرارة وقال : نعم ، لكن الاثنان يجب أن يسيرا معاً فلا بديل عن الاشتراكية الإفريقية فلسفة للنضال .

لم يكن سبيرز يتوقف عن الشراب حتى يفقد السيطرة على قدميه لكنه أبداً لم يفقد السيطرة على لسانه ولم أستطع إخفاء إعجابى به ولقد أنشأ جماعة صغيرة أطلقوا عليها اسم (أومانيا نوجاماندلا) ومعناها (دعنا نتعاون) وهى الجماعة الداعية إلى حركة اشتراكية إفريقية وكان معظم أفرادها من الرجال الذين انفصلوا عن عضوية المؤتمر الوطنى الإفريقى والمنظمة السياسية الأفريقية ، ولقد رأيت فى انضمام ماكس إليهم خطأ كبيراً

وأصابتنى الدهشة لنسيانه كل شىء عن أولئك الذين عملنا معهم فى منظمة الديمقراطيين والمؤتمر الوطنى الإفريقى، لكننى بعدما رأيت الحدود التى يقفون عندها شعرت برغبة شديدة أن يكون ماكس على صوابٍ.

ظل سبيرز ملازمًا لنا معظم الوقت وراح بمساعدة ماكس يصيغ منهجه عن الاشتراكية الإفريقية.

قال ماكس : إذا لم يصبح ذلك المنهج إنجيلاً للثورة الإفريقية فإنه على الأقل سيصبح سلسلة من الرسائل يمكن استخدامها كدليل .

وردد سبيرز وهو يشرب : يجب أن نقاوم يا رجل .

وراح يرددها وهو مخمور ولكن بثقة وإيمان لا يستطيع المرء معهما أن يضحك عليه وهو يترنح .. كان يكرر عبارته بمزيج من لهجة الهوسا ولغته الانجليزية العذبة .

ظل سبيرز يسهر مع ماكس كل يوم وحتى وقت متأخر من الليل، ولم يتوقف ماكس عن الكتابة وإعادة الصياغة بالاستعانة بذاكرته وببعض الملاحظات، وذات يوم - حين كان مشغولاً بعمله - عدت من العمل فوجدته متذمراً من بكاء بوبو الذى أعاقه عن العمل وتسبب كثيراً فى تشتيت أفكاره، وكان وجهه كوجه طفل تبدو عليه علامات الإحباط الشديد .. سارعت باصطحاب بوبو إلى الشارع لكننى لم أستطع أن أفعل شيئًا من أجل وجه ماكس .

بعد عودتى من الشارع رأيته يتبادل النقاش مع سبيرز وهو

متوتر دون أن يستطيع خلال ساعات أن يلتزم مكانه فى المقعد على العكس من سيرز الذى كان عنيفا ولكنه هادىء .. كان سبيرز يتحدث وهو جالس إلى مائدة المطبخ أحيانًا وأنا أقوم بتحمير السجق ويواصل حديثه حتى حين يتسلق بوبو كتفيه ولقد اعتاد أن يناديني قائلاً : حبيبتى ، ولما كانت الخمر تلعب برأسه قليلاً كان ينفرد بى فى ركن المطبخ فأقول له بأننى أكره رائحة البراندى وعندئذ يربت فوق يدى بأسف ويقول : إننى أنسى ذلك يا حبيبى .

لقد فشل سبيرز فى معظم علاقاته النسائية بسبب البراندى لكنه كان رقيقًا معى ومع بوبو وماكس الذى كان يعارضه كثيراً ويتجادل معه ويضغط عليه من أجل مساندة السود الذين يحبهم ويتعاطف معهم بطريقة تختلف عن حب بقية البيض لهم .. لم يكن ماكس يحبهم من أجل الوجاهة الاجتماعية ولم يكن حبه زائفًا فقد كان يؤمن بهذا البلد ويشعر بالدفء بينهم .. إنه ماكس الذى انفصل عن لونه حين انفصل عن طفولته وتمرد عليها ولم أكن أدرى إذا ماكان يحبنى حقًا أم لا لكنه كان تواقًا لممارسة الحب معى وإرضائي .. لا .. لقد كان يبغى سماع إعجابى به وبأى شيء يفعله وأيا ما كان الأمر فإننى لا أستطيع التفكير فى سواه لأن الحياة جمعتنا معًا فى مشهد واحد أمام عيون الآخرين ولأن هناك شيئاً ما يجعل اثنين من البشر معاً وهذا ما أطلقت عليه اسم الحب ، خاصة وأن بوبو حمل اسمه لكن بوبو هو الذى أبدى أسفه لعدم قدرته على حب ماكس

فماذا كان يعنى ؟ أهى عدم حاجته لأبيه أم أنه مجرد دفاع لأنه لم يستطع الوقوف ضد موت أبيه ؟

كنت أيضاً أتوق لممارسة الحب مع ماكس ولم أبخل بتقديم إعجابى الذى يريده فى محاولة منى لإرضائه من أجل أن يفعل الصواب فهل كان ذلك حباً ؟ .. أتذكر أن ماكس كان قوياً وممتعاً فى السرير ، لأن الإنسان حين يكون خرباً فإنه يمارس الجنس ببراعة حتى إننى كنت أردد مع كل ارتعاشة قائلة : ليتنى أموت هكذا .

توالت بعد ذلك النكبات والإحباطات وظللنا ننتقل من مكان إلى آخر فى السنوات الثلاث الأولى من أجل حياة أفضل لكننا كنا فى الحقيقة ننتقل من وضع مستحيل إلى آخر أكثر استحالة، ولم أستطع براتبى المتواضع أن أحصل على شقة كبيرة بدلاً من الغرفة الواحدة التى نعيش فيها مع طفل ونعمل فيها أيضاً .. لم يكن مسموحاً للأفارقة بزيارتنا فى المبنى وكان كل شيء يحدث لنا بسرعة وبدون وعى منا ، وفى أثناء ذلك تعرف ماكس على فتاة قادمة من كامبريدج ذات وجه أحمر كبير كانت تريد عمل شيء ما فى إفريقيا وبعد انتقالها من مقاطعة إلى أخرى والخوف من ترحيلها بالقوة عن طريق الحكومة البريطانية الاستعمارية عاشت معنا بعض الوقت وتعمقت صداقتها بالقومْيين الأفارقة وقد شاركت فى بعض الأعمال المفيدة ككتابة بعض الأشياء لماكس على الآلة الكاتبة .. كانت ترتاد الحفلات وتعود إلى البيت بالأسلحة فى سيارتها

الصغيرة المستعارة، وكثيراً ما كانت ترافق النساء أمسياتهن حين يذهب رجالهن مع فتيات أخريات .. ساعدت سبيرز أيضاً في ترتيق حاجياته والعناية بمعطفه وكانت ترافقه في جولاته المعقدة .

استيقظت ذات ليلة فوجدتها ترتدى ملابس توحى بالذهاب إلى نزهة لكنها كانت تحمل بندقية رش وحين أبصرتنى قالت : الذهاب إلى الحرب . ثم خرجت ببطارية صغيرة وظلت تنتظر أى شخص لاصطحابها .

عدت للنوم وقلت لماكس : عيد السنجاب المرح فى منتصف الليل !

قال : أوه .. واكو .

كان ذلك المزاح فى اسمها من اختراعه لأنه هو وسبيرز كانا يعاملانها بدلال خادع كالذى يبديه الرجال تجاه الفتيات غير الجذابات .

قلت : إن سبيرز يضايقها .. لا يجب أن يضايقها فهى تحترم كليكما كما أنها فى حاجة لرجل .

كانت تطلب منا دائماً أن نذهب معها للحفلات حيث الليبرالين من البيض والعاهرات السوداوات وبعض الناس عديمى الرأى الذين يؤيدون كل شىء وأى شىء، وقد أدهشنى ترحيب ماكس بالذهاب حتى أصبح عمله مع سبيرز على غير ما يرام وأصبح كلاهما بصحبة سانبون البدنية يظهرون فى تلك الحفلات ولكن كغرباء لا يعرف أحدهما الآخر ورأيت

ذلك نوعًا من الخبل، ولم أستطع الذهاب معهم لأننى لا أقدر على السهر حتى الثالثة صباحاً بدون أن أشرب كثيراً وإذا حدث فإننى لن أستطيع الذهاب للعمل فى اليوم التالى .

عند عودتى إلى المنزل قادمة من المعمل كان ماكس يسدد نظراته الخاطفة نحوى تعبيراً عن الضيق والتذمر من صراخ بوبو فى المطبخ أو الحمام، وذات ليلة كان يتحرك فى الحجرة كقطعة الفلين التى أدركتها حركة المد والجزر حتى وصلت إلى رمال الشاطئ وهو يفتح البيرة ويقدم الجبن ويلملم الأوراق .. أشار بالسكين بطريقة فرحة وقال مخاطبًا سانبون : تعالى يا سانبون فأنت تعرفين مكان الأوراق التى أعطيتها لك .. لا تقفى هكذا وهيا تحركى يا ذات الأثداء الكبيرة والجسد البدين .

هكذا كانت طريقته معها فى الكلام لكنها بكت هذه المرة ثم عرفت بطريقة ما أنه مارس معها الجنس .

وقف ماكس ممسكاً بالسكين الملطخة بالجبن وأشار لها لكنها اندفعت خارجة من الحجرة فاهتزت أردافها الكبيرة وأثدائها البدينة وحين أسرعت خلفها التقيت مصادفة بدافن التى انتهت من كى فستان أنيق كان يجب أن تسلمه لها فقلت : هات الفستان يا دافن.

رفعت دافن وجهها وقالت : لماذا تبكى ؟

وفى محاولة للدفاع عن نفسه قال ماكس : لقد كانت تحاصرنى بثديها الكبير الممتلىء وقد حدث ذلك بعد الانتهاء من الحفلة وأنا مخمور تماماً .

همست لنفسى : إنها ليست من طراز النساء الذى يسبب الغيرة .. لو أننى أغار منها لاختلف الأمر ولكن لماذا مارس معها الجنس؟.. إنه يعرف السبب كما أعرفه .. كان فى احتياج شديد للاستحسان والإعجاب لكنه مارس معها الشذوذ فعاشرها من الخلف وكنت على استعداد لأن أغفر له النوم مع امرأة أثارت شهوته فى لحظة ضعف لكننى لست مستعدة للغفران لأنه أهان جسدها الكبير .

لم تكن هى المرأة الوحيدة فى حياة ماكس فقد كان يعيش مع إيف كنج فى منزلها أثناء طوارىء عام ١٩٦٠ وقبل ذلك كان نفس الشىء مع روبرتا الجميلة التى هى الآن تحت الحراسة ، ولقد سببت شئون الحب هذه آلاماً كبيرة بالنسبة لي جعلتنى أستسلم وأعيش تجربة مماثلة مع رجلين مختلفين أملاً فى إعادة توازنى بشكل ملائم ولم يكن يهمنى عدد النساء اللاتى عرفهن ماكس لأن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً خاصة وأن الواقع قد فرض نفسه .. واقعنا ، ظروف حياتنا ، الغرفة الواحدة ، أحلامنا وأفكارنا وذلك التعارض الشديد بينهما ، عائلة ماكس ونجاحهم المتواصل وحصولهم على المكاسب حتى ولو عن طريق التدمير والخراب ، تمرده على بنى جنسه ورغبته فى الانتقام .. كل شىء .. كل شىء وليتنى أعرف هل كان يحبنى أم أنه كان يحب أى امرأة أخرى ؟ .. إن ماكس لم يكن مشغولاً بمعرفة الإجابة عن هذا السؤال .

اختفى سبيرز وتم القبض على بعض أعضاء (أومانيا

نوجاماندلا) وبعد الإفراج عنهم انهارت الحركة وعاد معظمهم مع سبيرز للانضمام مرة أخرى للمؤتمر الوطنى الإفريقى الذى تم الحظر على أنشطته فيما بعد وأصبح يعمل فى السر ، وكانت الأوراق الخاصة بمنهج الاشتراكية الإفريقية فى مأمن من هجمات الشرطة لأننى كنت أضعها فى المعمل داخل حقيبة وعندما أخبرت سبيرز بذلك ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ، ولم نعد نراه بعد ذلك هو وصديقنا الآخر وليام زابا الذى اعتاد أن يزورنا دائماً ودعا الساسة الأفارقة النشيطون إلى الابتعاد عن منازل البيض ورفض صداقاتهم ومودتهم ، وأثناء ذلك كان ماكس فى كيب تاون لقضاء ثلاثة أشهر امتدت إلى ستة أشهر عمل خلالها فى إحدى الصحف الراديكالية الجديدة وحين سافرت مع بوبو إلى هناك لقضاء أسبوعين من أيام الكريسماس كنا نسير نحن الثلاثة عبر الساحل الصخرى الوعر بمحاذاة البحر حيث الطحالب البحرية القادمة من أعماق المياه وكنا نقول لبوبو : انظر هناك .. انظر هناك .

لكن نظرات بوبو لم تكن تتجاوز أصابعنا التى نشير بها وذات مرة نظرت إلى الحقيبة فى يد ماكس وتساءلت : هل هى الأوراق الخاصة بمنهج الاشتراكية الإفريقية ؟

وتساءلت أيضاً وأنا أستمتع بأشعة الشمس المناسبة فوق سطح المياه : كيف تعيش النساء الإفريقيات اللاتى يحفظن أنفسهن وأطفالهن .. لابد أن هناك كثيراً من الأشياء التى ينبغى على المرء أن يتعلم منها ولابد أن ماكس على صواب لأن

الإنسان إذا أراد أن يحقق شيئًا فعليه أن يفعله بمفرده. نظرت إلى طحالب البحر الطافية فوق الماء وقلت لماكس : هل ستنتهى قبل أن تبدأ مثلما حدث كثيراً من قبل ؟

ظل ماكس صامتًا ولم أسمع منه إجابة شافية وكانت تلك هى آخر أيامنا التى عشناها معاً.

عاد ماكس إلى جوهانسبرج وتم الطلاق بيننا ثم اختفى شهوراً عديدة عاود بعدها الظهور فقالوا إنهم طردوه من البلاد بطريقة غير شرعية، قبل أن يعود مرة أخرى، لكننى لم أستطع معرفة المكان الذى ذهب إليه أو الناس الذين قضى وقته معهم غير أننى سمعت من سو لى صديقنا الهندى القديم أنه أمضى وقتا برفقة بعض الناس الراغبين فى تشكيل مجموعة ثورية سرية من البيض.

سمعت رنين التليفون فى الحادية عشر مساء فقال جراهام : ليز .. هل أنت ليز؟ .. تذكرى أن تشترى صحيفة الصباح لأنها ستنشر أخباراً هامة عن ماكس وعن الظروف المحيطة بالحادثة.

كان صوت جراهام على التليفون متوحشًا وهادئًا فتراءت لى المياه وهى تغطى كل شيء ثم توقفت الفقاقيع عن الارتفاع وعندئذ قلت لنفسى : نعم .. كانت توجد إمكانيات ولكن تحت أى حجر ؟ .. تحت أى حجر ؟

تذكرت قنبلة ماكس التى وصفوها فى المحكمة بأنها مصنوعة من علبة مليئة بخليط من الكبريت ونترات

البوتاسيوم والفحم وكيف أنهم عثروا عليها قبل أن تنفجر وكيف أنهم قبضوا عليه فى خلال أربع وعشرين ساعة .. لقد أصبح كل شيء أسوأ مما كان وتوالت هجمات الشرطة وحملات الاعتقال والسجن بدون محاكمة وأصيب البيض الطيبون مع خدمهم بالدهشة من جراء القنابل وسفك الدماء كما حدث لهم أثناء طوارئ عام ١٩٦٠ عندما أطلق البوليس النار على الرجال والنساء والأطفال خارج مكتب تصاريح شار بيقيل، ولم يتحملوا مشهد الدم وكانت نصيحتهم الإنسانية المهذبة هى أن إحداث التغيير لا يتم إلا عبر القنوات الشرعية، أما ذوو البشرة البيضاء من الليبراليين الذين يقدمون الشكاوى ويتظاهرون ويعلنون عن آرائهم بصراحة فلم يفعلوا شيئاً ولم يحققوا أى شيء ورأوا فيما يحدث حماقة تبدد قواهم وقالوا لماكس : إن قنبلتك هذه لا تستطيع تحطيم قطعة من الرخام فلماذا تخاطر بحياتك ؟

(الشجاعة والتحدى يتطلبان قدراً من الجنون .. تلك هى حكمة الحياة)

حاولت أن أفهم شيئاً عن الجنون وعن الله وتساءلت : لماذا ينبغى على الشجاع دائماً أن ينتهى به الأمر إلى الجنون ؟

هرب البعض من البلاد وهجر البعض الآخر منظماتهم وخلاياهم وتم القبض على آخرين رفض الكثيرون منهم الحديث تحت ضغط التعذيب والاستجوابات حتى تدهورت صحتهم لكن قليلين هم الذين تحدثوا وقالوا كل شيء .

حكموا على ماكس بخمس سنوات وبعد خمسة عشر شهراً من الضرب والتعذيب تحدث إليهم بما يريدون فاتهمه الزملاء بأنه مخبر خاصة بعد أن أخبرهم عن سولى وإيف كنج والرجل الذى اعتقلوه معه وعن وليام زابا وآخرين ممن عاشوا معنا وعملوا معنا سنوات طويلة ولكن عن أى شىء أخبرهم وكيف تمت المواجهة بينه وبينهم ؟

تلك أسئلة لا حيلة للإجابة عليها !!

إنه ميت الآن ولم يكن موته من أجل الناس فقط .. لقد فقد احترامه لذاته واتهموه بالخيانة .. لقد خاطر بكل شىء وفقد كل شىء .. لقد قدم حياته ثمناً وإلقاء نفسه فى قاع البحر كان هو النهاية .

الفصل الرابع

إن قضاء وقت طويل مع جدتى العجوز لا يفيد فذاكرتها ضعيفة ولا فرق أن يقضى المرء معها نصف ساعة أو ساعتين لكن المهم أن تراه فقط أما التعرف على وجهه فلا يحدث سريعاً وإنما من خلال فتور الماضى وذهول الحاضر .

صنعت فنجاناً من القهوة لمغالبة النوم ومضيت بالسيارة عبر الضواحى قاصدة جدتى أثناء فترة الراحة بين حفلة سينمائية نهارية وأخرى، فكان الأولاد متزاحمين عند مدخل السينما يدفع بعضهم البعض فى هزل ويتناولون الآيس كريم فى الشمس، وأمام زاوية من التقاطع الرئيسى للشارع كانت عائلة بيضاء فقيرة تبيع غزل البنات للعابرين بسياراتهم، وفى طريقى مررت بملاعب التنس وملاعب البولينج الخضراء حيث يلعب بعض الناس ويستمتع البعض الآخر بالمشاهدة، وكانت صناديق البيرة الحمراء السميكة مفتوحة من كل جوانبها ولم تكن أيادى الأطفال تخلو من الحلوى .

بالنظر إلى وجوه الناس لم يكن ثمة شك فى أنه يوم السبت بعد الظهر حيث بهجة نهاية الأسبوع.

إنه بيت قديم ذو سقف حديدى وطراز فيكتورى قديم لكنه قد تأثر بفعل الزمن فقاموا بتجديده مما أفقده جماله القديم .. كانت أبواب المدخل من الصلب والزجاج والضوء غير المباشر يظلل النباتات الاستوائية، وفى الطابق الأول كانت الأشياء المزخرفة الموروثة من أغنياء أوربا منذ سبعين عاماً ونافذة من الزجاج الملون مرسوم عليها أوراق الزهرة ثم ألوان قوس قزح التى تضفى جمالاً على بعض الأشكال الفنية .

أشعر دائماً بشعور إنسانى تجاه المكان لا أحسه أمام أى بناء حديث لكن جدتى حين ذهبت هناك لأول مرة وكانت ماتزال قادرة على الاعتناء بنفسها وبالمكان كانت تشكو قائلة : إنه مكان قبيح ومن الطراز القديم .

إن جدتى تحب البلاستيك والزهور الصناعية والحرير الصناعى والرخام الصناعى والجلود الزائفة .

إن المرء داخل المكان يفقد إحساسه بالأيام .. نفس الهواء الدافىء والإضاءة الشاحبة والمشروبات الروحية ونفس الإحساس الغريب وعدم القدرة على معرفة إذا ما كان الوقت ربيعاً أم شتاءً، وعند العبور من بوابات الحراسة المفتوحة على اتساعها يستطيع الواحد منا أن يسمع وقع أقدام ميتة لبعض المرضى وكبار السن الذين يغادرون أسرّتهم بعض الوقت .. إنها مصحة للمدمنين لبعض المرضى وكبار السن ومرضى السكر الذين لا أمل فى علاجهم وينتظرون الموت بين وقت وآخر .. سيدات عجائز بشعر أبيض قصير يبدو وجه إحداهن كوجه

سكير طائش وكأنها عاهرة فقدت جاذبيتها ، وأخرى ذات بطن كبير كانت تمد قدميها فوق المقعد كالضفدعة الميتة الغارقة فى مياه البركة لم أستطع أبداً معرفة ما حدث لها .

خارج حجرة جدتى الصغيرة كانت باقة الورد داخل الفازة على الأرض تحتوى على زهرة شقائق النعمان والأعشاب ذات الزهر الأحمر وبعض زهور اللبن الثلجية كالتى أرسلها لى جراهام .

فتحت الباب بهدوء وتسمرت فى مكانى لحظة أبصرت خلالها جدتى جالسة فوق المقعد بشعرها القصير المجعد كما هو لكنه - هذه المرة - كان مصبوغاً بلون خفيف ومربوط بعقدة صغيرة إلى الوراء وكان أحمر الشفاه واضحاً فوق شفتيها .. كانوا يغيرون ملابسها كل يوم ويساعدونها فى ارتداء عقدها اللؤلؤى وقرطها الكبير .

كان الضوء القادم من خلفى قد ساعدنى فى رؤية عينيها المفتوحتين ووجهها الذى ارتسمت عليه علامات الخوف .

قالت بفزع : مَنْ القادم ؟

أجبت : أنت تمزجين بالتأكيد .. إنها حفيدتك إليزابيث .

دخلت الممرضة ووقفت بيننا فقلت لها : ابتعدى قليلاً حتى ترانى بوضوح . ثم اقتربت منها حيث الضوء القادم من النافذة وقمت بتقبيلها وأنا أقول : ها قد جئت فلم أشأ أن يفوتنى عيد ميلادك .

استجابت لقبلتى ثم استدارت للخلف بسرعة وخوف

وعندئذ قالت وهى تنظر نحوى : إليزابيث . . حبيبتى إليزابيث . . أليس كذلك ؟

ضحكت الممرضة الأفريكانية بشدة لكن جدتى لم تلحظ شيئًا وراحت تقترب منى وتقبلنى مرة أخرى ثم مدت يدها إلى فمها وقالت بغضب : مادامت إليزابيث هنا فلماذا لا أشعر بأسنانى ؟ . . أين أسنانى ؟

قالت الممرضة : إن لثة أسنانك كانت تؤلمك هذا الصباح يا جدتى ولم ترغبى في تناول الدواء . . ألا تتذكرين ؟ وعلى أية حال ها هى أسنانك ولكن يجب أولاً أن تتناولى الدواء .

– عن أى شىء تتحدثين ؟ . . هات أسنانى .

اختطفت جدتى أسنانها من يد المرأة وفتحت فمها لكنها لم تعرف مكان الجزء العلوى والسفلى .

شعرت الممرضة براحة كبيرة لوجود شخص آخر غير هذه السيدة العجوز تستطيع أن تتبادل معه الحديث فقالت لى : إنها دائمًا تخاف كلما اقترب شخص ما من الباب ولست أدرى لماذا تخاف إلى هذا الحد؟ ! إصابتها بالذبحة الصدرية الأخيرة . . إنها تعتقد دائمًا أن شخصًا ما سوف يأتى ويأخذها .

تحولت عنى وقالت لجدتى برقة : لن يؤذيك أحد يا سيدتى ولا أحد يستطيع إيذاءك . . أليس كذلك ؟

رفعت العجوز حاجبيها العاريين من الشعر وتحسست أسنانها الكبيرة المستعارة حين سألتنى : هل مازال زوجك يقيم معك أم أنه تركك مرة أخرى ؟ وماذا عن بوبو ذلك الولد الجميل ؟

كنت قد أخبرتها فى زيارة سابقة عن طلاقى من ماكس لكنها لا تتذكر وإذا قلت لها الآن أنه مات فسوف تنسى أيضاً ولذلك أجبتها قائلة : لقد رأيت بوبو فى الصباح وهو يتمنى لك عيد ميلاد سعيد .

قالت وكررت القول مراراً : عيد ميلادى ؟ !

ثم استطردت : كم عمرى الآن ؟

قلت لها : أنت فى السابعة والثمانين على ما أعتقد لكننى لست متأكدة .

حاولت أن تتصرف كفتاة صغيرة لكنها لم تستطع إخفاء خجلها من ذلك التصرف ، فراحت تهمس قائلة : شيء فظيع ! ! .. إنه عمر طويل ولم أكن أعرف ذلك كما أننى لا أعرف أى شيء .

تحسست يديها فسرى النبض فى كل جسدها وأبصرت الطلاء الأحمر فوق أظافرها كما اعتادت دائماً أن تفعل وذلك العقد اللؤلؤى حول رقبتها والذى يبدو كأنه صُنع خصيصاً لأجلها ثم سألتها : هل رأيت الزهور التى أرسلتها لك ؟

تدخلت الممرضة قائلة : لقد رتبت الزهور بطريقة جميلة لكنها لم تشأ أن تضعها بجانبها فى الحجرة .

- لماذا ؟ .. لماذا لا تريدين زهورك هنا ؟

بدا وجه السيدة العجوز خالياً من أى معنى فأضفت : هل رائحة الزهور قوية جداً أم أنك لا تحبين تلك الرائحة ؟ إننى أخشى ألا يكون هذا الوقت من العام مناسباً للزهور !

لقد اعتادت الحديث عن عشقها للزهور رغم اهتمامها القليل بالأشياء الطبيعية .

قالت الممرضة : نعم فهى لم تحتمل الرائحة القوية للزهور ولم ترغب فى إبقائها بالداخل .

ظلت جدتى تنظر نحوى ونحو الممرضة ثم سألتنى وهى تشير إلى الممرضة : مَنْ تكون هذه ؟

كان وجهها يوحى بالاتهام حين ابتسمت الممرضة وقالت : آه يا جدتى .. إننى جروبلر .

لكن جدتى لم تفهم وارتعش وجهها وهى تكرر بنفاد صبر : مَنْ هى وماذا تفعل هنا ؟

أخبرتها أنها الأخت جروبلر التى تعتنى بها فهزت رأسها راضية وقالت : هل هى مناسبة لى ؟

أجبت : نعم بالطبع .. إنها مناسبة .

بدأت الممرضة تغنى لحنًا رتيبًا : إننى أرتب سريرك وأقوم بحمامك .. أنا التى تمشط لك شعرك وتصنع لك الكاكاو .

بدت جدتى وكأنها لا تسمع شيئًا أو تفهم شيئًا مرة أخرى وكانت تجاويف يدها تنتفض وكذا مفاصل أصابعها المدهونة بالكريم .

كان والد جدتى يعمل مهندسًا مع رودس وبيت ، ولقد اعتادت طوال حياتها أن تعيش على الفوائد دون أن توفر شيئًا كما قالت أمى ذات يوم ثم أنفقت آخر ما تملك من رأس مال على نفقات شيخوختها ، وأستطيع أن أتذكر الآن أن جدى من

أمى لم يترك أى شيء لأولاده وفى نفس الوقت الذى تزوجت فيه أمى من شاب مفلس تزوجت جدتي أيضاً مرة ثانية من رجل أكبر قليلاً من ابنتها أنفقت معه جزءاً كبيراً من رأس المال إلى جانب إقراضها المال لابنتها من حين لآخر، ولم يحدث أن شاركت أبى وأمى اعتراضهما على الطريقة التى نعيش بها أنا وماكس والسؤال عن السبب فى فشل ماكس كزوج لكنها كانت تقول بأنه ولد مبتهج وعنيد ومغامر جذاب.

كان من دواعى سرور أبى وأمى أن أتزوج من عائلة فان دن ساندت لكننى أفسدت ذلك السرور عندما أصبحت حاملاً قبل الزواج حتى أن الناس فى مدينتنا الصغيرة كانوا يقولون : لقد تزوجها رغماً عنه .

وكانوا يلقبونه فى المدينة بابن الثروة فهل سيستريح أبى وأمى حين أخبرهما بوفاته ؟ وهل من الصعب قول ذلك ؟

لقد كانوا يتوقعون شيئاً من ابن الثروة لم يحصلوا عليه فهل كنت أنا - بطريقة ما - أتوقع منه شيئاً لم يكنه ؟.

كنت فى السابعة عشرة من عمرى حين قابلت ماكس ذات صيف أثناء مساعدة أبى فى دكانه أيام الكريسماس حيث مختلف البضائع والأطباق والأكواب الصغيرة الملونة .. طائر الوقواق الرخيص وساعات الحائط واليد .. فازات حمراء وبلابل مطلية بماء الذهب .. أقلام يابانية مزركشة ونازعات سدادات ألمانية على هيئة رءوس كلاب وأحد الأركان الخاصة بالتماثيل الصغيرة لراقص الباليه .

كانت القتيات تشترين هذه الأشياء بما حصلن عليه من عملهن فى محلات أخرى تبيع نفس الأشياء تقريباً، وكان الرجال السود يترددون كثيراً عند اختيار ساعة فعرفت فيما بعد أن تلك الساعات لا تعمل بانتظام وأن كل شىء زائف ورديء، واكتشفت يومها أن ماكس يعرف كل شيء من خلال البيت الذى يعيش فيه ومن خلال رواد البيت المحيطين به ورفاهيتهم فى الحياة التي قاتل من أجلها آباؤنا وأجدادنا فى حربين وقتلوا بسببها كثيراً من الرجال السود فى حروب أهلية .. اكتشف ماكس كل شيء ولذلك توقعت منه شيئاً وربما أشياء كثيرة .

فكرت قائلة : بعد وفاة جدتى سيأخذ بوبو سلسلة صيد أبيها الذهبية التى أعطاها له بيت .

مضت أول خمس دقائق معها وكالعادة لم أجد ما أقوله بالتطلع فى فراغات وجهها العميق تذكرت متعتها القديمة حين كانت تجوب الشوارع والطرقات والمدن فوصفت لها رحلة الشراء التى قمت بها فى الصباح، وقلت لها : كنت أبحث عن شيء ما أرتديه فى المساء يكون خفيفًا وبأكمام لأن الجو - كما تعرفين - سيكون دافئًا فى الأيام القليلة القادمة .

انتبهت وقالت : ما هى الموضة هذا العام ؟ .. هل هو اللون الأسود ؟

- لا .. إننى أحب اللون الأبيض .

مالت للأمام بثقة وقالت : إن اللون الأبيض لا يناسب الوجه .

- لكن الأبيض المائل للصفرة يبدو رقيقًا وبسيطًا .
- لكنه يحتاج لغسيل دائم يا حبيبتى ولا تستطيعين ارتداءه سوى مرة واحدة فقط .
- انتقلت من محل إلى آخر وكانت جميعها مزدحمة فعرفت أنه لا يجب شراء الملابس فى أيام السبت وعندئذ توجهت إلى الفولا لتناول القهوة .. هل تتذكرين ذلك المكان الذى كنت تشربين فيه القهوة وذلك اليوم الذى اصطحبنى فيه بوبو لتناول الغداء حين سرق الأرغفة من المائدة المجاورة ؟

ابتسمت ببطء شديد حتى تشقق فمها المتدلى وارتسمت الابتسامة فوق وجهها القاحل ثم ضحكنا معًا فاستعادت ذاكرتها وراحت تردد كلمات بوبو : ساعدى نفسك يا جدتى .. ساعدى نفسك يا .....

قاطعتها الممرضة قائلة : أنت تستطيعين تذكر كل شيء عندما تريدين وتتحدثين جيدًا عندما تأتى حفيدتك أما حين نكون وحدنا فإنك تصبحين كسولة .

ثم تطلعت نحوى وقالت : انظرى كم هى مليئة بالحياة .

حركت السيدة العجوز ذراعيها الكبيرين وكان وجهها يوحى بمعان كثيرة وحين تحدثت معها ظلت ترمقنى بنظرات عينيها التى فيها من الحيرة قدر ما فيها من التسامح .. واصلت حديثى لكنها تجاهلتنى لأننى فى الحقيقة لم أكن أقول شيئًا وفجأة سمعتها تقول : ماذا حدث ؟

لم يكن ثمة ما يقال فهذا النوع من الأسئلة لا حيلة فى

الإجابة عليه وليس من اليسير إخبارها بأنها ستموت .. لقد ورثت جدتى كل ما يجعل الحياة هانئة ورغم ذلك فلا شيء يحول بينها وبين الموت .

سألت أيضاً : ماذا سأفعل إذا لم أخرج الآن ؟

أجبت : تستطيعين الخروج فى أى وقت وقد أحضر ذات يوم بعد الظهر وأصطحبك أنت والممرضة جروبلر إلى السينما .

كيف أتصرف عندئذ وهل بمقدورى أن أفهم ؟

كانت ابتسامتى بلا معنى وأنا أقول لها : فلتبق هنا فى هدوء .

كررت السؤال : ولكن أخبرينى بما حدث .. ماذا حدث يا إليزابيث ؟

قلت : لا شيء على الإطلاق .. إنه التقدم فى العمر فقط وهذا شيء طبيعى وعادى جداً خاصة وأنك فى السادسة أو السابعة والثمانين وهذا عمر كبير يا جدتى .

انتهت الساعة التى قررت أن أقضيها معها فقلت لها وداعاً بابتسامة مشرقة ووعدتها بالعودة مرة أخرى فى الاسبوع القادم رغم أنها لن تعرف الفرق إذا ما امتنعت عن زيارتها لمدة شهر .

ظلت تكرر : إنه عمر كبير .. عمر كثير .. أنت تعلميننى .

خرجت من الباب وسرعان ما عادت إلىّ خطواتى السريعة العنيفة بعد أن تجاوزت هدوء الممرات ورحت أقود سيارتى عبر الجسر قاصدة بيتى فلاحظت علامة السهم والرمح القديمة التى

لم يعد لونها أحمر شاحبًا .. كانت بداية غروب الشمس وثمة أبنية بمحاذاة أعمدة التليفون المنتشرة على طول الطريق وعدد ليس قليلاً من الناس يحمل شرابه للخارج من أجل الاستمتاع بالضوء المنتشر فى كل مكان .. الضوء الذى يحيط الوجوه كما تفعل ظلال الأشجار .. إنه يأتى من أحد الانفجارات البركانية فى الجانب الآخر من العالم ومن ذرات الرمال المرتفعة نحو طبقات الجو العليا ويعتقد بعض الناس أنه بسبب التجارب الذرية القادمة من نصف الكرة الأرضية الشمالى بسبب الكآبة والركود .. إنها منطقة ترقد فيها العناصر هادئة ولا تحمل أى تلوث .



الفصل الخامس

كنت أقوم بتقطيع البصل إلى شرائح لتجهيز وجبة من لحم الخنزير حين جاء جراهام فى السادسة فنهضت أفتح الباب والسكين فى يدى المبللة .

كنت سأتناول عشائى بالخارج كما قررت هذا الصباح لكن رائحة يدى الكريهة حالت دون ذلك .. التقط جراهام جريدتى من فوق حصيرة الباب وأدركت من حركات فمه الطويل أنه فهم ثم قال وهو ينظر إلى الجريدة : لقد نجح الأمريكان أيضاً فأرسلوا رجلاً يمشى فى الفضاء .. انظرى .

لم أستطع الإمساك بالجريدة فأدرت رقبتى لمشاهدة صورة المخلوق الجنينى المعتم المتصل بعجلة مظلمة عن طريق شىء كالحبل السرى وقلت : أتمنى لو أن صور الجريدة باللون الأبيض والأسود بدلاً من الألوان حيث تكون الرؤية أفضل .. إن الصورة هكذا تشبه أشياء بوبو الكوميدية .

أغلقت باب المطبخ ثم اختفيت داخل الحمام لأغسل يدى بينما دخل جراهام حجرة المعيشة وراح يقرأ عناوين الجريدة الفرعية وبعض مقتطفات من تقرير طويل بصوت عالٍ : (طلبوا

منه كثيراً أن يعود إلى سفينة الفضاء لكنه بدا مستمتعاً خارجها .. الأمر المختصر بهجر الفروسية .. لا مزيد من الكعك المحلى .. قطع فطائر رقيقة وصغيرة من الطراز الجنوبى تتسبب فى مشكلة غير ذات أهمية) .

أجبت ببعض التعليقات وأنا أداعب أظافرى وأضحك لكن الرائحة لم تفارق يدى فعدت إلى حجرة المعيشة وسكبت العطر فوق يدى حين كان جراهام جالساً فوق مقعده المعتاد ولم يكن بمقدورى وربما لم يكن ضرورياً أن أشرح له سبب اعتذارى عن العشاء بالخارج خاصة وأن رائحة البصل لا تزال تطاردنى كلما تحركت يدى نحو وجهى .

بادرنى بالقول : لقد جئت سيراً على الأقدام ولم أستغرق سوى خمس وعشرين دقيقة .

- لا أعتقد ذلك فهناك منحدر على طول الطريق وعلى أية حال فإنك لن تستطيع العودة بنفس الطريقة .. هل تتذكر ذلك اليوم فى عيد الفصح عندما تعطلت سيارتى وعدت من عندك إلى منزلى سيراً على الأقدام ؟

- متى حدث ذلك ؟ .. ولماذا لم أصطحبك فى سيارتى ؟

- كنت قد أعطيتها لرفيقك فى المجلس القانونى العالمى ألا تتذكر ؟

- أوه .. نعم .. إنه «باتن» .. والآن سأحتسى شراباً قبل أن يحل الظلام وأبدأ رحلتى الصعبة الطويلة .

- لا داعى للعجلة إذ يمكننى أن أعود بك فى سيارتى

سأستغرق وقتًا فى ارتداء ملابسى .

ابتسم وقال : أوه .. شىء جميل .

نهض وتناول زجاجة الويسكى من خزانة الكئوس والأطباق إنه يمدنى بزجاجات الويسكى الذى لا أستطيع شراءه - ثم توجهت لإغلاق أبواب الشرفة حيث غابت الشمس وأصبح الجو باردًا وكانت صورة غروب الشمس الرومانيكية ماتزال فى إطارها فوق الحائط فبدت الحجرة بلون أسمر فاتح .

قال : شىء رائع .

- لقد اعتدت على ذلك .

ظل ينظر متأملاً فلم أستطع إغلاق الأبواب حتى ينتهى من تأملاته وكأننى مرشدة فى متحف حتى قال : ومع ذلك فإننى أحب الأبقار والعشاق حين يصعدون مرتفعات «فريدا جولد» .

إنه يحتفظ برسومات شاجال فى حجرة نومه كما تحتفظ النسوة بأعمال مارى لورنسين فى حجرات نومهن فلماذا لا يحدث ذلك فى حجرة المعيشة ؟.. لابد أنها رؤية خاصة أو طريقة حياة خاصة لا تناسب الإنسان العادى وربما غير مسموح له بها وأياً ماكان الأمر فإن جراهام لم يكن شغوفًا بشاجال أو مهتمًا بأعماله حتى قدم له شخص غنى هذه اللوحة المعلقة فى حجرة النوم .

قلت : فلنفترض أنها وقعت !

قال بطريقة متسامحة كما يفعل معى أحياناً : إذن فهى ليست جميلة .

اعترضت قائلة : إن الجمال شيء نسبى .

ابتسم لطريقة حديثنا هذه التى نمارسها أحياناً وكان يطلق عليها محادثات التلاميذ .

- الحقيقة ليست هى الجمال .

- إنها ليست كذلك تماماً

أغلقت الأبواب لكننى لم أستطع شد الستائر عن آخرها فجلس جراهام حاملاً الكأس فى يده بعد أن تحرك بمقعده فى مواجهة المنظر .

كنت قد توقفت عن ملاحظة غروب الشمس إلا قليلاً لكن اهتمامه جعلنى أنتبه فالمرء يعاود اهتمامه بسماع قطعة موسيقية لم يعد يسمعها حين يجد شخصاً يهتم بسماعها ،

حدقت فى الألوان كما كان يحدق وقلت : سيكون الأمر فظيعاً لو أنها سقطت .

- كيف تبدو لك ؟

- لم أستطع رؤية العشاق أو آلات الكمان أو الأبقار .

هبط الظلام وبدا إشعاع أحد النجوم فى السماء كأنه شظية من الزجاج . وكعادته دائماً حين لا يناسبه كلامى قال : لقد أصبت .

هكذا شأن الناس الذين يعرفون بعضهم البعض كما أعرف جراهام ويعرفنى حيث يستغرق الحديث وقتاً طويلاً دون اعتبار لأهمية الحديث أو نوعيته فالأمر لا يختلف إذا كان متعلقاً بالشئون السياسية أو بتبادل الحكايات عن الأصدقاء أو

التخطيط لقضاء إجازة لكن المهم هو التواجد وإعادة تقسيم الأدوار التى اختار أحدهما أن يقدمها للآخر الذى يستنبطها بدوره لإظهار الوفاء لكننى امرأة ذكية وملعونة لا يملك أدوات التعامل معها إذ أن العلاقة مع امرأه من نوعى تعنى الموافقة ضمناً ليس فقط على المساواة فى الذكاء وإنما أيضاً على الإحساس العام المعاصر .. إنه غالباً ما ينظر فى الاتجاه المعاكس كلما أمسكت بزمام المناقشة بطريقة أفضل منه، وفى العام الماضى بأوربا تناقشنا حول الرسم والمبانى التى شاهدناها معاً كما نفعل دائماً على مائدة العشاء فى منزله أو فى شقتى حين نتحدث فى الشئون السياسية، وكان يتملقنى بينما أسعى أنا لشد انتباهه ناحيتى وبعد أن أصابنا الارتباك وبدلاً من قوله المعتاد : (لقد أصبت) قال هذه المرة : كيف ترين علاقتنا ؟

لم أعرف ما أقوله لكن سؤاله كان هادئاً ومجرداً وليس من نوع الأسئلة التى يقوم فيها المحامى باستجواب الشاهد ثم فشل كلانا فى قدرته على التحكم.. واصلنا حديثنا ولكن دون الاقتراب من تشخيص حالتنا الحقيقية التى سيطر عليها الظلام.

قلت : أجد صعوبة فى التحديد .. أعنى .... كيف ..... ماذا بوسعى أن أقول ؟ .. هذا هو عصرنا .. أليس كذلك ؟

كان يصغى بجدية وتعاطف وأنا أستطرد : كنت أقود سيارتى اليوم صباحاً على سبيل المثال عبر الشجيرات المتناثرة وكانت شمس الصباح الشتائية وتسع سنوات من عمرى وعمر

ماكس .. ذلك الصباح الذى كانت فيه لحياتنا تطلعات مختلفة للمستقبل تشبه دوّى الطائرات البعيدة فى السماء التى كنت أسمعها من معسكر تدريب القوات الجوية المجاور لبيتى أثناء الحرب .. نفس الصباح الذى عشت فيه هنا وكان ماكس فى السجن ولم أكن أرملة .. كنا نكبر ونلتحق بالوظيفة ونتزوج ونصلى للمسيح الأشقر فى كنيسة البيض ونقدم ملابسنا القديمة للمربية ..

لقد سألتنى جدتى العجوز قائلة : ماذا حدث ؟

وأثناء قيادتى للسيارة عبر الأشجار الصغيرة قاصدة بوبو تذكرت ماكس وإنصاته للبط الذى لم يستطع أن يفهم منه أى شىء.

كان رجل ما يسير بالقرب فى الخلاء فتوقفت وقلت لجراهام : ماذا سوف يقولون عنه فى التاريخ بالله عليك ؟

قال : لقد قرأت كتاباً يشير إلى تاريخنا على أنه العالم البرجوازى الزائل .. كيف ترين ذلك ؟

شعرت بشىء يتحسس جلدى مثلما تفعل الرياح عند اصطدامها بالماء ثم ضحكت .. إن بعض الكلمات أحياناً تساعد فى تعميق هذا الشعور.

– احتضار جميل .. لكنه تعريف سياسى ليس جيداً .

– نعم، لكن الكاتب الألمانى الشرقى يعنى ما هو أكثر من ذلك .. إنه يعنى الفنون والاعتقادات الدينية والتكنولوچيا والاكتشافات العلمية وممارسة الحب وكل شىء

– باستثناء العالم الشيوعى .

– لا . . ليس حقيقيًا فإنه جزء من الظاهرة التاريخية كلها .

رغبت فى انصرافه فقدمت له كأسًا أخرى وقلت : هل كنت تعمل بعد الظهر أم أنك استسلمت للنوم ؟

ابتسم ابتسامة جوفاء كتلك التى ترتسم فوق فم الراهب حين يختلق بعض الحكايات عن الحياة خارج الدير وكنت أعرف أنه لم ينم طوال بعد الظهر رغم المجهود الذى بذله فى ممارسة الحب معى ليلة أمس وإنما كان يكتب فى حجرته ويسجل كلامًا بصوته على الدكتافون كذلك الذى كنت أسمعه من وراء الباب وكأنه شخص يقوم بالصلاة .

لاحظت بالقرب من البيت الذى تقيم فيه جدتى علامة السهم والرمح المنتشرة فوق حائط الجسر لكننى لست مندهشة لأن نفس العلامة موجودة فى أرجاء المدينة أيضًا ولقد أخبرنى جراهام فى الأسبوع الماضى أنهم حكموا على فتاة بيضاء شابة بثمانية عشر شهرًا لأنها رسمت هذه العلامة وهذا الرمز لكنهم يحكمون على الرجال والنساء السود فى كيب بثلاث سنوات عقابًا على نفس الشىء .

قلت : أتعتقد أنه من المناسب استخدام هذا الرمز ؟ ومن هو صاحب الفكرة ؟

إنه الرمز الخاص بالمقاومة الذى ظهر لأول مرة فى إحدى المحاكمات السياسية منذ زمن ليس ببعيد ولدىّ اعتقاد أنهم يرغبون فى إيجاد رمز آخر بدلاً من ذلك الذى اخترعه أحد المخبرين .

ضحك وقال : لا أعتقد أن المخترع كانت لديه أية دوافع كما أن وكالات الإعلان التى تصوغ الشعار ليست لديها أية دوافع ولا تؤمن بما تفعل .. أليس كذلك ؟

- أعتقد هذا لكنه أمر غريب يثير التساؤل وإلا فلماذا يكون الشعار هكذا ؟

التزمنا الصمت لحظة فكر فيها كلانا بماكس ولكن لم يكن ثمة ما يقال عن ماكس غير أن فكرة موته أو حياته ظلت تلاحقنا مثلما يلامس الماء قدم المرء عند شاطىء مظلم فى الليل .

سألنى جراهام : هل وصلت الزهور إلى جدتك ؟

أخبرته كيف أنها صرخت عندما رأت الزهور عند مدخل الباب ولم تشأ أن تضعها بالداخل فقال : شىء طبيعى أن تخاف من الموت .

ربما بالإضافة إلى أنها تكره الأشياء الطبيعية ولا تتحمل الطقس البارد أو رؤية الشعر الرمادى خاصة بعد أن أصابتها الشيخوخة منذ سنتين أو ثلاث سنوات مضت ، وربما قبل ذلك حيث اعتادت منذ خمسة عشر عامًا أن تقضى الشتاء هنا وترحل إلى إنجلترا فى الصيف لكنها الآن لا تستطيع عمل ذلك .

نهض فجأة وهو يحتوينى بنظراته وكانت الدهشة تعتريه وربما الضيق ثم قال لإنهاء المحادثة : أيمكنك الآن اصطحابى بالسيارة ؟

لم يفهم جراهام أن المرء حين يوشك على الموت فإنه يريد إحساساً بالاكتفاء كذلك الذى يحدث عند تناول الطعام .

ذهبت معه بسيارتى إلى منزله وعند مدخل البوابة طبق من البرونز اللامع مكتوب عليه اسمه وفوق الباب الخشبى الأمامى يوجد فانوس حديدى .

نزل من السيارة فسارعت بالسؤال : هل لك أن تتناول العشاء معى غداً ؟

كنا فى حالة من اللامبالاة وعدم القدرة على التفكير فعدت مسرعة وكأننى خفاش خارج من الجحيم وقد شعرت بمهارة ممتعة فى القيادة عند الملفات كما يحدث لى عندما أشرب شراباً قوياً على معدة خاوية .

قلت لنفسى : يجب التخلص من رائحة البصل وتناول حمام قبل السابعة والنصف .

ثم تراجعت قائلة : أو قبل الثامنة وإذن فهناك متسع من الوقت .

كان «لوقا فوكاس» هو القادم .. لقد اتصل بى فى المعمل يوم الخميس وقال : كيف الأحوال يا رجل ؟ هل بمقدورى أن أزورك يوم السبت خاصة وأننى قريب من هنا ؟ هل يناسبك هذا التوقيت ؟ .. إننى موجود لمدة قصيرة لكننى سأعود كثيراً .

إننا لا نستخدم أسماءنا فى المحادثات التليفونية لكن لوقا اعتاد على مناداتى بكلمة «رجل» كما ينادى الزنوج بعضهم البعض .

- حسناً، سوف أحضر .
- فى حوالى السابعة والنصف .

لست أدرى لماذا وافقت على زيارته وأتمنى ألا يضعنى فى قائمة زياراته لأننى أريد أن أكون وحيدة .. ربما أكون قد افتقدت وجوههم السوداء بعد أن نسيت مذابحِ المنزل الخلفى وخيبات الأمل وسوء التفاهم، لكننا عشنا أوقاتاً طيبة كالتى كان يجلس فيها «وليام زابا» مع آخرين يوم الأحد تحت شجرة المشمش طوال اليوم بينما يأتى «سبيرز» ويتحدث معى وأنا أجهز لهم الطعام .

عادت إلىْ ذكرى تلك الأيام وكأننى لم أعشها وشعرت كما لو أننى استيقظت فجأة لأجد نفسى فى مكان غريب ورغم ذلك فلقد عرفت فيما بعد أن كل الأشياء لم تكن جيدة وأن الصداقة لم تكن من أجل الصداقة فقط كما يحدث بين البيض .

همست لنفسى : ينبغى أن أتفرغ لعملى وللعلاقة التى تربطنى بجراهام ويجب أن أعترف بحظى لأننى لا أمتلك القدرة على المخاطرة بالمضى فى نفس الطريق الذى سلكه ماكس .

لم يكن «لوقا» أحد أفراد المجموعة القديمة لكن رفيقه «ريبا» كان يعرف ماكس وقد حضر كلاهما عندى ذات مرة .. إنهما ينتميان إلى هذا المكان لكنهما يعيشان فى باسوتولاند بعد أن حصلا على حق المواطنة بطريقة ما من الإدارة البريطانية وكان ريبا يعمل مقاولاً للنقل والمبانى ولديه شاحنة قديمة ينقل بها

مواد البناء بين ماسيرو وجوها نسبرج بدون قيود ويستخدمها فى نقل السياسيين إلى الاتجاه الآخر للمشاركة فى المعارك الانتخابية حتى حدود بيشوانا لاند .

ذات ليلة منذ خمسة عشر شهراً جاء ريبا إلى شقتى فى منتصف الليل حين تعطلت شاحنته وكان برفقته شابان .. لم يكن يملك المال الكافى لإصلاح الشاحنة ولم أكن أعرفه تماماً فلقد قابلته مرة واحدة فقط مع ماكس لكننى أعطيته الثمانية جنيهات الوحيدة التى أمتلكها وانتابنى الخوف من فكرة أن يكون الأمر كله مجرد فخ للبوليس وخفت أكثر ألا يكون كذلك ثم قلت لنفسى: كيف لشخص مثلى ألا يساعد الأفارقة؟!

كان أحد رفيقيه شاب بدين ذو وجه ناعم أسود يوحى بأنه من إفريقيا الغربية وله عينان كبيرتان تشعان فوق جلده الأسود وتشبه العيون الملونة لشعب غرب إيطاليا القديمة .. إنه لوقا .

أما ريبا الصغير فقد كانت رأسه مثبتة بين أكتافه إلى الوراء مثل الرجل الأحدب وكان فكه كبيراً وفمه مفتوح بانتباه وضحكته هادئة تذكرنى دائماً بفرس النهر حين يفتح فمه كى تسارع الطيور بتنظيف أسنانه.

كان كلاهما جذاباً لكننى لم أستطع أن أثق فيهما تماماً ولم أحلم أبداً أن يرد لى ريبا النقود غير أننى تلقيت خطاباً مسجلاً عبَّر فيه عن شكره العميق ووقعه فى النهاية قائلاً : (رفيقك فى النضال : ريبا شبيز)

منذ تلك الليلة راح لوقا يعاوذ الظهور من وقت لآخر ويشرح لى تفسيراته بين زيارة وأخرى ثم يحدثنى عن ريبا وسر اختفائه قائلاً : إنه مشغول جداً بأعماله وربما حر جوهانسبرج الشديد هو الذى يمنعه .

ماذا يحدث ؟ .. ليس من شأنى على أية حال ، فكلاهما من رجال المنظمة السياسية الإفريقية لكن الحكومة العنصرية البيضاء لا تفرق بين تلك المنظمة وبين رجال المؤتمر الوطنى الإفريقى الذين كنا نساندهم أنا وماكس ومعظم اليساريين البيض من الليبراليين لوقوفهم ضد العنصرية وعدم رفضهم لنا ومناقشاتنا معهم .. إن رجال كلا التنظيمين كانوا معرضين للسجن وحقيقة انتماء البعض إلى كلا المنظمتين لم يعد مثار شكوك .

كنت أكتفى بعمل الوجبات السريعة فى المطبخ والتى لا تتطلب مهارة كبيرة مثل عمل البيض المقلى ولا أطهو وجبة جيدة إلا فى وجود بوبو خاصة وأن جراهام كان يدعونى على العشاء بأحد المطاعم أو يكلف طباخه بعمل وجبة نتناولها فى منزله لكن لوقا فوكاس كان جائعًا حين جاء مع ريبا فى تلك الليلة ولم يكن أمامه سوى تناول الطعام البارد الذى أحتفظ به فى الثلاجة أحياناً وهو عبارة عن لحم الخنزير بشرائح البصل والذى لا يعد طعاماً جيداً لكننى أستمتع بالحصول على كل شىء جاهز .

فتحت زجاجة النبيذ الإسبانى الأحمر التى تركها جراهام

ليوم ما قد نتناول فيه شيئًا يستدعى شرابها فالنبيذ شيء ضرورى بالنسبة له مع الطعام الجيد وممارسة الحب حيث إنه لا يستمتع بأحدهما منفصلاً عن الآخر .. تناولت كأساً وشربته فى الحمام فبدا الأمر جميلاً وأنا أقرأ الصحف وذلك التقرير الذى قرأه جراهام عن الفضاء غير أنهم لم يذكروا شيئًا عن ماكس فى الطبعة الأخيرة .

كنت أرتدى ملابسى قبل مجيىء لوقا بوقت كاف دون أن أدرى شيئاً عما سأفعله رغم وجود أشياء كثيرة ينبغى أن أقوم بها لكن وقتاً يثير الارتباك كهذا لا يمكن عمل شيء فيه .. حاولت استكمال الخطاب الذى بدأت فى كتابته لكننى لم أستطع لأن روح الكتابة قد اختلفت فأدرت التسجيل وصببت لنفسى كأساً آخر من النبيذ .. جلست وشعرت كما لو أننى فوق خشبة أحد المسارح الخالية من الجمهور ثم أمسكت بكتاب كنت أقرأ منه فى الصباح وأنا مستلقية فوق السرير وعند منتصف الصفحات كانت وفاة ماكس تتراءى لى فلا أفهم شيئًا ، فألقيت بالكتاب جانبًا وعندئذ عدت إلى صوابى مرة أخرى .

كانت أصوات الناس فى الخارج تتسلل إلى منزلى وصوت مذياع مزعج يتطرق إلى مسامعى مختلطًا بصوت أبواب السيارات وهى تنغلق بعنف ، وكانت الأضواء منعكسة فوق مرتفعات فريدا جولد .

أبصرت أنبوبة صمغ فوق طفاية السجائر كنت قد

استخدمتها منذ أيام قليلة فى لصق نعل حذائى، فتذكرت رأس تميمة القرد الإفريقى المكسور الذى أحضرته لبوبو من ليفنجستون فى طريق عودتى من أوربا فى العام الماضى، فتوجهت إلى حجرة النوم وقمت باللصق بعناية فى محاولة لإعادتها إلى ما كانت عليه غير أنها لم تصبح كذلك .

فكرت فى شراء بعض الألبومات للاحتفاظ بصور بوبو الملقاة فى دولاب الحمام داخل صندوق القبعات القديم والتى ضاع معظمها مع صحفنا وأوراقنا الشخصية من جراء هجمات الشرطة المتكررة فى كوخنا القديم والتى لم أستطع استردادها وتحمست للفكرة وأنا أقول : صور بوبو فى الألبوم مكتوب عليها التاريخ واسم المكان .

شعرت بالجوع فتناولت كأسًا أخرى من النبيذ ثم سمعت طرقًا خفيفًا على الباب .

إن لوقا لا يدق الجرس .

الفصل السادس

إنه يدخل من المدخل الأمامى للمبنى مباشرة ولا يضايقه الحارس الجالس فى نقطة المراقبة بالكشك الخشبى من أجل مراقبة الذين يتسللون إلى حجرة الخدم فى السطح عن طريق السلالم الخلفية ، كما أنه لا يخشى أن يراه أحد وإذا ما قابل السيدة القائمة على العناية بالمكان فإنه يختلق لها حكاية مقبولة يفسر بها وجوده وهكذا ينجو منها لكنه - بطريقة ما - لا يقابلها .

كان باستطاعة عدد قليل من الأفارقة أن يفعلوا مثله أما الغالبية فلم يكن بمقدورهم التحرك خطوة واحدة دون عراقيل ومحظورات كالتى تواجههم فى كل مكان ، كما عرفت حين كان ماكس يعمل معهم .

وقف لوقا عند المدخل فأدركت حينئذ أنه لا يأتى لزيارتى بدون موعد يتفق معى بشأنه حين أسمع صوته على الطرف الآخر من التليفون ، أو حينما أراه واقفاً هكذا بابتسامته العريضة وجسده الكبير الذى يملأ ملابسه .

شعرت بسعادة لرؤيته وكان من اليسير سماع هفهفات

ملابسه ورؤية عضلاته المتحركة وهو يسارع بالدخول .. إنه أحد أولئك القوم الذين يتنفسون بحذر كالقطط ويتركون بصمات أصابعهم فوق الكوب نظراً لدفء أجسادهم

قلت : جميل أن أراك .

وضع يديه بسرعة فوق قمة ذراعى وتركهما ينزلقان إلى الكوع ثم ضغط علىّ برقة .. وقفنا لحظة تبادلنا خلالها الابتسام بدلال ثم قال : وجميل أيضاً أن أراك فلقد كدت أن أنسى شكلك .. هاى .. ماذا حدث ؟ .. هل كان غيابى طويلاً ؟

أبصر اللون الفاتح فوق قمة رأسى فقلت : لا شيء .. إنها الموضة التى تفعلها النساء عند الكوافير ويطلقن عليها اسم التقليم أو التخطيط .

وضع يديه فوق الأجزاء البارزة من أثدائى وكأنه يقول : إلى هناك ثم توجهنا إلى حجرة المعيشة .

ظل يتحدث وهو يتجول بالحجرة دون أن يتوقف عن النظر إلى الأشياء ولمسها وكأنه يريد إحساساً بالألفة أو شعوراً بأنه فى بيته وقد أثارت العلامات والشارات انتباهه وراح يفكر فى تأثيرها وهو يتذكر حياتى هناك مع ماكس وكان طبيعياً ألا ينتبه لزهورى ، فلقد كان لديه ما يريد قوله فى الحال : لقد جئت يوم الثلاثاء .. لا .. لقد غادرنا يوم الثلاثاء متأخراً ووصلنا صباح الأربعاء مبكراً ثم تعطلت السيارة .

تناولت بيدى زجاجة البراندى وأمسكت بيدى الأخرى زجاجة النبيذ المفتوحة فقال : أوه .. أى شيء وليكن براندى ..

لقد أصاب التلف سير المروحة والشاب الذى كنت معه ......

- أليست الشاحنة معك ؟ وكيف حال ريبا ؟

- إنه فى منزله هذه الأيام وأنا الذى يقوم بالتحرك إذ أنه يعانى من المشاكل مع زوجته التى تتسبب فى المتاعب دون إدراك منها حتى أن الطبيب لم يستطع معرفة ما بها وفى حقيقة الأمر فقد طلب منى ريبا أن أسألك .

- حسناً، لكننى لست طبيبة وإنما أعتقد أنها تعانى من ضعف فى السمع

- نعم وهذا ما قاله الطبيب لكنها ليست ذكية .....

ضحكت فاستطرد : وتعانى من قصور فى الفهم والإدراك ويمكن للمرء أن يفقد توازنه إذا فقد السمع تماماً .

قلت : نعم .. أعرف .

أراد أن يجعلنا نضحك على المنطق الإفريقى فقال : إنها تقول أن لها أذنين فقط .

قدمت له كأساً من البراندى ثم توجهت للمطبخ وأشعلت نار البوتاجاز بسرعة وبعد أن وضعت اللحم فوق النار وضعت الصلصلة فوق السلاطة وقمت بخلطهما معاً دون أن أغسل يدى كما أفعل دائماً حين لا يرانى أحد .

كان يسمع الأصوات الصادرة منى فى المطبخ ويضحك وعندما خرجت حاملة الصينية قلت فى مواجهة ابتسامته العريضة : ما الأمر ؟

قال : إن الفتيات ذوات البشرة البيضاء لا يبددن الوقت

ويتمتعن بروح عملية فعالة وذلك ما أحبه .

وضعت الخبز والسلاطة والزبدة فوق المائدة وقلت : إننى لا أفعل هكذا دائماً وقيامى بعمل هذا يعد مجهوداً خاصاً .

أجابنى قائلاً : أوه .. أشكرك جداً .

ظل صامتاً يراقب دخولى حجرة المعيشة وخروجى منها حتى أبصر رأس القرد الإفريقى ، فاكتسى وجهه بالفضول وسارع بالتقاطه ثم قال فى محاولة للتقرب منى ومن شئون حياتى : أنت تجدين ما يشغلك طوال الوقت فها هى محاولة لتثبيت رأس القرد .

- إنه خاص بابنى بوبو .

قال وهو يداعب الفراء بأحد أصابعه : شىء جميل لولد صغير .

- إن بوبو لم يعد صغيراً وقد لا تناسبه الآن .

- لكننى أستطيع اللعب بشىء كهذا فى مثل عمرى الآن .

لم أكن أعرف إذا ما كان لطيفاً حقاً أم أنه كان يفتعل المرح من خلال استجابات سريعة لما يحيط به لأنه حين يكون يقظاً لما أقول فإن عينيه ترفرفان وعندئذ أعرف أنه - بطريقة خاصة - يفكر فى شىء آخر .

ابتسم ونظر لى نظرة إعجاب طفولى أثارت إعجابى ثم قال : أيمكنك الجلوس والاسترخاء قليلاً ؟

كان حديثه فى كثير من الأحيان قليلاً وموحياً على طريقة الأفلام الأمريكية التى تأثر بمشاهدتها ، وكان ذلك مناسباً له

تماماً كما كان ملائماً له ذلك الجاكت الصوفى الذى يرتديه.

تسربت إلى أنفى رائحة البصل الذى استوى مع الزبدة فوق النار بينما كنا نتبادل الحديث بمودة فوق أرض محايدة .

سألته عن الانتخابات فى باسوتولاند ثم تطرق بنا الحديث عن وضع اللاجئين من جنوب إفريقيا وعندئذ بدأ يشكو من الأحكام المفروضة عليهم من قبل السلطات البريطانية التى أشار إليها قائلاً : أصدقاؤك الإنجليز .

قلت باحتجاج : أصدقائى ؟ .. لماذا أصدقائى ؟ .. رغم إشفاقى على أولئك البؤساء ومساعدتهم فى التعامل مع اللاجئين السياسيين ومشاركتهم النضال .

قال : آه .. إنهم يمارسون لعبة جميلة مع حكومة جنوب إفريقيا فلا تقلقى .

قلت : خاصة شباب المنظمة الإفريقية السياسية .

ضحكنا بصوت عالٍ فوجدها فرصة للانحراف بعيداً عن الموضوع وخاصة فيما يتعلق بزياراته لجوهانسبرج .

كنت على يقين أن هناك سبباً وراء زيارته لى كما يحدث دائماً رغم أنه عاد فى المرة الأخيرة دون أن أعرف السبب إذ أنه لم يستطع الإشارة إلى ماكان يريد .. إن ذلك الشاب لوقا ليس أحمق على أية حال .

بدأنا نتناول الطعام فى حوالى العاشرة وكان الجو شديد الحرارة والرطوبة .. تلك الحرارة التى لا يشعر بها المرء عندما يقوم شخص ما بخدمته من خلف الأبواب .. رغب لوقا فى

زجاجة من البيرة لكننى لا أحتفظ بها فى منزلى فراح يواصل شراب البراندى بينما أعددت لنفسى كأسا من النبيذ الجيد .

أعلنت احتجاجى منذ سنوات قليلة مضت حين تصرفت بأنانية وجشع وبحثت عن المتعة مع جراهام لكننى فكرت فيما قلته لماكس منذ زمن بعيد أثناء بدايتنا معاً : ماذا بوسع الإنسان أن يفعل إذا مات الشخص الذى يحبه وكيف يمكنه الاستمرار ؟

أجاب ماكس عندئذ : بعد ساعات قليلة يشعر ذلك الإنسان بالعطش فيرغب فى الشراب .

كان العشاء جيداً ولذيذاً وبدا الأمر كأنه عيد فقلت لصاحب الوجه الأسود الناعم والعينين الكبيرتين الجالس إلى جوارى : هل عرفت من الجريدة أن زوجى مات ؟

دق قلبى فجأة دقات سريعة ومتلاحقة ولم أعد أفكر فى إخبار هذا الزائر بأى شىء فقد كان الوقت متأخراً ولم يكن ثمة ما يقال .. إن مثل هذه الزيارات بلا معنى كالوقت الذى نستيقظ فيه من النوم ليلاً لنقرأ أو ندخن ثم نعود للنوم مرة أخرى .

كان فم لوقا مليئاً بالطعام فبدا خائفاً وهو يبصق الطعام ثم قال : يا للمسيح ، لم يخبرنى أحد ولم أقرأ شيئاً فى الجريدة .. متى حدث ذلك ؟

شعرت بارتباك شديد وقلت : لقد تم طلاقى منذ زمن بعيد كما تعرف وعاش بوبو معى منذ طفولته المبكرة .

- أوه .. ذلك الرفيق الذى كان معك فى كيب تاون .. هل

كان هو الشخص الذى تزوجتيه؟ .. لقد قرأت عن وفاته ولكننى .....

- نعم، لقد تلقيت البرقية هذا الصباح وكانت صلتنا مقطوعة منذ عام .

ظل يكرر مرة وراء الأخرى : يا إلهى الطيب .. لم أكن أعرف .

عدت لتناول الطعام لإجباره على مواصلة طعامه لكنه ظل يحدق في وجهى فقلت : يا للجحيم، كان أمراً كريهاً يا رجل .

- وماذا فعلت يا ليز ؟

كنت أتناول طعامى فرحت أمضغ قطعة من اللحم وأغرف قليلاً من قطع البصل وحين وضعت الشوكة فى فمى تأكدت أنه كان يلاحظنى فتوقفت عن الأكل واعتدلت فى جلستى ثم نظرت إليه وقلت- : لم أفعل شيئاً يا لوقا سوى الذهاب إلى المدرسة لإخبار ابنى وهذا كل ما فى الأمر .

- وماذا عن الجنازة ؟

- ستكون فى كيب تاون .

- هل ستذهبين إلى هناك ؟ .. لاشك أنك لن تذهبى .

ربما كان يفكر فى جنازة إحدى العائلات الإفريقية بكل ما فيها من خصومات ونزاعات قبلية وبالحياة البائسة .

أجبت : لا .. لن أذهب

قال : لكنه كان زوجك !

- نعم، أعرف ذلك.

أظهر كلانا تقديره للآخر بدون دهاء ولا أستطيع أن أزعم أننى أعرف أى شىء عنه سوى ما أمكننى التقاطه من براءته ووجهه الممتلىء الجميل غير أنه اعتبرنى إنسانة غريبة بالمقارنة بنوع الحياة التى ينتمى إليها .

بدأنا فى تناول الطعام مرة أخرى ببطء حين قال : لماذا فعل ذلك من وجهة نظرك ؟ .. هل هى أسباب سياسية ؟

كان لوقا يعرف ذلك الوقت الذى عمل فيه ماكس مخبراً فقلت : لو أنه كان رفيقاً لكم لما فعل ذلك بنفسه لأن شخصاً آخر كان سيقتله بالسكين ويلقى به فى الميناء .

قال : اهدأى يا ليز .. هل تعتقدين أنه لم يستطع التخلص من إحساسه بالذنب ؟

- لا أعرف يا لوقا .. إننى حقيقة لا أعرف .

- لكنك تعرفينه وتعرفين أى نوع من الرجال هو رغم عدم رؤيتك له منذ مدة طويلة .

- إنه لا يعتقد أنه كان كذلك .

لم يشأ لوقا أن يخاطر بحديث سيىء عن الميت فقلت بطريقة من يقدم العزاء لنفسه : يوجد بعض الناس ممن يقتلون أنفسهم لعدم قدرتهم على تحمل فكرة أنهم لن يعيشوا للأبد .

ابتسمت وخشية أن يعتقد أننى أتحدث عن الحياة بعد الموت أضفت بسرعة : أعنى أنهم لا يستطيعون الصبر على الوقت الذى يعيشون فيه مثل القديسين والشهداء الذين هم من نفس النوع .

لكنه قال : الفتى البائس .

وجدت نفسي وكأننى امرأة بيضاء أخرى تتحدث كثيراً فقدمت له نبيذاً مرة أخرى لكنه رفض قائلاً : لا .. سأكتفى بهذا .

كنا قد شربنا كثيراً لكننى كنت فى حالة جيدة رغم أننى لا أشرب أبداً عندما أكون فى حالة سيئة .. صببت لنفسى كأساً أخرى وتناولنا مزيداً من الطعام وراح يحدثنى عن مشروع ريبا ببناء ستة عقارات حول باسوتولاند من أجل حياة أفضل للأفارقة حتى قال : وإذا وجد ريبا من يساعده فلن يتوقف وعندئذ يستطيع الحصول على الطوب والخشب بأسعار رخيصة .

– ولكن أى نوع من المنازل ؟

– ستكون المنازل جيدة لأن ريبا يعرف ما يفعله .. هل تعرفين صديقه بازل كاتز ؟ .. إنه الآن يقوم ببعض التصميمات ويفعل ما فى وسعه هناك فى محاولة منه لمساعدة ريبا

لم أهتم كثيراً وكان من اليسير أن أبدو متعاطفة لكننى قلت : ألن تقوم جمعيات البناء بدورها ؟

– لا بالطبع فهذه الجمعيات للأسف لا تفعل شيئًا من أجل المواطن الأسود ولذلك أشعر بالأسف تجاه ريبا الذى أعرف أنه ماهر جداً ويستطيع الحصول على الأسمنت والطوب والخشب بأسعار رخيصة كما أن لديه الأيدى العاملة من أهل باسوتولاند وهذا فى حد ذاته شيء جيد .

- لا أعتقد أنه يملك الضمان الكافى .
- نعم هو كذلك ولو أنه من البيض لاختلف الأمر .
استأنف حديثه عن العمل ربما بدون وعى وهو مائل بمقعده إلى الخلف حتى قال : ثلاثون ألف راند(*) بعائد ١٠ ٪ فتكون الفائدة حوالى ثلاثة آلاف .. هل تدركين ذلك ؟
- وهل يوجد هناك من يستطيع شراء مثل هذه المنازل ؟ وهل لديهم المال ؟ .. أعنى أنه مشروع غير اقتصادى بطريقة ما .
قال بطريقة رجل المدينة الذى يحتقر أهل القرية : ينبغى أن تشاهدى الماشية التى يمتلكونها وهؤلاء هم الذين يذهب إليهم ريبا ويجلس معهم ويشاركهم احتساء البيرة وتبادل الأحاديث ويخبرهم بحاجة الحكومة الأفريقية بعد الاستقلال لهذه المنازل من أجل الوزراء والناس فى المدينة .. إنه يقابلهم ويتحدث إليهم ولا يذهب لأولئك البؤساء فوق الجبال .
تطرق الحديث عن سرثو وحينئذ أخبرنى عن مباحثات ريبا مع الفلاحين فضحكت وتساءلت بينى وبين نفسى : إلى أى شيء يرمى ومن أجل أى شيء جاء ؟
لكننى نسيت تساؤلى بسرعة وقلت : وذلك ما تفعله أنت فى جوهانسبرج فكلاكما يعمل على زيادة النقود من أجل بيوت الأغنياء .

(*) Rand : وحدة العملة فى جنوب إفريقيا (المترجم)

نظر إلى قطعة الجبن التى تناولها لتوه فأزاحها بعيداً بالسكين ثم نهض من فوق المائدة واستدار بعد أن وهبته الصراحة التى أرادها .. بدت بطنه مليئة من خلف قميصه الأبيض فرفعها بيده وراح يتنفس بعمق وهو يتقدم بصدره إلى الأمام وعندما بدأ يتحدث مرة أخرى قال بطريقة مختلفة : لا .. إنها ليست بيوت الأغنياء .. إنها .... إنها بيوت ريبا .

تحركت يداه بإشارة دائرية وحين تذكرت أنه كان يعمل بائعاً لملابس السيدات الداخلية فى الضواحى سألته بعد أن وقفت فى مواجهته وطويت ذراعىّ : كيف تعيش الآن يا لوقا ؟

ثم أضفت : رغم أننى أعرف أنك لست من النوع الذى يحق للمرء أن يسأله مثل هذا السؤال .

ابتسم إبتسامة بريئة لم يستطع التراجع عنها وقال بتردد : إننى مع ريبا كما تعرفين .

– لا .. لا أقصد ذلك فأنت مشغول جداً مع ريبا ولكن كيف تعيش ؟ .. أليست لك عائلة فى مكان ما ؟

– إننى أسافر وحدى .

كان كلانا يعلم بوجود زوجة وأطفال لكنه خبير فى توصيل ما قد يدعوه المرء بالأسف الجنسيٍ وتبيلغ اقتراحاته بوجوب ممارسة الحب وأعتقد أنه لاقى قبولاً كبيراً مع نوع النساء البيض اللاتى يعرفن أمثاله من الرجال السود .

لقد حاول معى من خلال أشياء أخرى وبطرق مختلفة ولم أستطع أن أخبره بحبيبى الأسود الذى كان منذ سنوات مضت .

تحسس أذنى ورقبتى بمقدمة أصابعه وليته كان يعرف جمال هذه الحركة فإننى أحب - بشكل خاص - تلك الخطوط الوردية الشفافة فى الجانب الداخلى من الأيادى السوداء والتى تبدو وكأن الضوء يتخللها.

لفنى بذراعيه ورحت بدورى ألتصق بخصره الدافىء القوى بعد أن تلامسنا برقة ضايقته بقولى : أظن أن الحزب الشيوعى يساندك.

وكما يفعل كل رجال المنظمة السياسية الإفريقية راح يتهم رجال المؤتمر الوطنى الإفريقى بأن موسكو تقتادهم من أنوفهم وكذلك بكين ثم قال : نعم، هذا صحيح.

ضحكنا ثم انفصلنا ورحنا نتجول فى الحجرة وهو يقول : إننى أعترف وأقبل كل شىء.

جلس بارتباك فوق مقعد منخفض بالنسبة له فتقوست قدماه واتخذت أنا مكانى فوق الأريكة وقال : جميل أن تكونى هنا فى هذه الحجرة فإننى أتسكع فى هذه المدينة القذرة منذ يوم الخميس .. إننى أتذكر ليلتى الأولى هنا وأنت فى ثياب النوم الحمراء المرسوم عليها قليل من النقوش .. أليس كذلك ؟

.. أتذكر أنك فتحت الباب يومها دون خوف من الرجلين الأسودين الغريبين الواقفين أمام بابك.

لم أعرف يومها سبب زيارتهما .. هل هى النقود ؟ .. إن ريبا يرد أحياناً النقود وفى أحيان أخرى لا يردها حتى أننى لا أتذكر إذا كان مديناً لى الآن بشىء أم لا.

قلت من فوق أريكتى المريحة : إننى أعرف ريبا ولقد رأيته من قبل ذلك .

قال : لكننى كما لاحظت فإنك لم تعرفيه ولم تستطيعى التعرف عليه ورغم ذلك فقد طلبت منا بأدب أن ندخل ثم تناولت أنا بعض الطعام البارد المتبقى من عشائك يا ليز .

ابتسم وهو يعاود الاقتراب منى وراح يتملقنى ويمدح طبيعتى الطيبة حتى نادانى قائلاً : ليزى

لقد استخدم اسمى بطريقة غير مناسبة وغير متقنة لكنها كانت طريقة ظريفة على أية حال فتذكرت فتيات المطبخ اللاتى يصنعن من أسمائهن أسماء أخرى جميلة .

قلت بسخرية : لم يكن لدى أى شىء آخر أقوله سوى السماح لكما بالدخول .

أبصرت خلف عينيه مرة أخرى بعض الكلمات الذكية التى لم أعرفها وكان شجاعاً هذه المرة فى محاولته فلم أعرف ما ينبغى أن أقوله وأصابنى الارتباك لما كان يريده منى .

تحرك بتثاقل فوق المقعد المنخفض ودارت عيناه إلى أعلى بحركة ضاغطة من رأسه فبدا كما لو أن شخصًا ما قد سلط عليه الضوء كان نوعًا من التمثيل الصامت لليأس من جانبى حين تنهد وأوشك على الحديث فتراجع عن تنهداته وأشار بيديه إلى ارتعاشة عضوه وهكذا تأكدت من وجود شىء ما حقيقى كان يخفيه خلف سلوك طيب . .

إنه إحساس هذا الثور الأسود الشاب فى المتجر الصينى

الأبيض بوجباته القليلة اللذيذة وأرفف الكتب والخزف الصينى القديم وتبادل الأحاديث أثناء تناول القهوة .

قال : تلك الأيام القليلة .. لقد فكرت كثيراً فى تلك الأيام القليلة من الصباح وحين الليل، هنا وهناك.. لقد كان وقت

......

انتظرت أن يواصل حديثه فلم أقل شيئاً حتى استطرد قائلاً : ليتنا نبقى على أى شىء ونحافظ عليه ولا نبخل على الشباب بالرعاية الكافية .. إن كل القضايا الآن فى كيب الشرقية ويوجد محامون يمكننا أن ندفع لهم .

رمقنى بنظرة سريعة فحركت رأسى وقلت : لقد اتهموا ما يزيد على العشرين من رجال المنظمة الإفريقية السياسية بالتخريب هذا الأسبوع كما جاء بالجريدة، ومثل هذه الحالات كثيرة جداً لكن الأمر المؤسف أنهم لم يبدأوا فى محاكمة المعتقلين منذ عام مضى إلا هذه الأيام وكأن ممثل الدفاع لا يطالب بوجود محامين للدفاع عنهم .. إن العقل الأبيض عقل منظم يتعامل مع النكبات من خلال القنوات الرسمية .

رفع يديه وقال : لا ... إنهم يفعلون ولكن فى حدود معينة ولا يخلو الأمر من مختلف أنواع العقبات كما تعرفين .. إنه ليس دفاعاً شرعياً بقدر ما هو خاضع لأشياء أخرى تتعلق بالعائلات وخلافه.

سارع بعينيه الهادئتين البيضاوين فى التطلع نحوى وظل هكذا لحظة تلاشى خلالها الاتصال بيننا فقلت : توجدمشاكل أخرى .

لم يدرك شيئاً رغم أن الحقيقة كانت واضحة فى نظراتى ثم أضفت قائلة : قليل جداً هو ما أعرفه هذه الأيام ولذلك تجدنى مضطرة لتصديق ما تقوله الصحف فلا شىء يحدث فى الضواحى كما أن الأعمال السرية متوقفة فى الوقت الحاضر .

كان لوقا يعرف أننا نحن معشر البيض نحب ذلك الشعور بأننا على صواب مما يجعلنا مصدر ثقة فراح يتملقنى مرة أخرى قائلاً : نعم هو كذلك وهذا كل ما تعرفينه ياليز وكل ما تحتاجين لمعرفته .

توقف قليلاً ثم قال فجأة : أتتذكرين الكولونيل «جيسفورد» ؟

ضحكت وأوشكت على القول : يا إلهى .. ذلك المسكين غريب الأطوار .

لكننى لحسن الحظ لم أقل شيئاً فقد قاطعنى مستطرداً : كان عجوزاً متشامخاً وأحد أفضل أصدقائنا .. لقد كان صديقاً حقيقياً .

تحدث لوقا بنفس طريقة الكولونيل الطيب الذى كان أسلوبه تبشيرياً وكانت طيبته تتمثل فى عدم إدراكه للحقائق .. لقد سجنوه فى العام الماضى لأنه لم يدرك أثناء قيامه بإدارة الصندوق الخيرى أنهم يستخدمون أموال الصندوق فى إبعاد الناس عن البلاد وتدريبهم على الأعمال الحربية .

عرفت أن شعور لوقا تجاه الرجلِ العجوز - الذى استخدموه بطريقة مخزية - كان شعوراً حقيقياً حين قال : أود أن أقول لك

أنه ليس يسيراً تعويض مثل هذا الرجل .. أعنى أنه لم يعد لدينا سوى القليل من الناس الذين يستطيعون مساعدتنا .

ذكر اسمين أحدهما هرب من البلاد والآخر تحت الحراسة وعندئذ أدركت السبب الذى جاء من أجله فلقد كان مستحيلاً بالنسبة للرجل الثانى أن يتولى أمر النقود فقلت : أما زالت النقود تدخل إلى البلاد ؟

لم أكن شغوفة بمعرفة الإجابة عن هذا السؤال لكنه نجح فى استدراجى .

أجاب : الدخول .. نستطيع ذلك بقليل من الترتيبات .. يا إلهى الطيب .. ليتك تعرفين يا ليز ما حاولت القيام به فى الأيام القليلة الماضية .. لقد قاتلت من أجل ترتيب شىء ما لكن العقبات ظلت تلاحقنى أينما ذهبت .

قلت : إن الأمر خطير ! .. ألا تعتقد أنهم يعرفون كل شىء عنك ؟

ابتسم وقال : إنه شىء بسيط يا ليز فنحن نريد شخصاً يملك حساباً فى البنك فهل تعرفين مثل هذا الشخص ؟

أغمض عينيه الكبيرتين نصف إغماضة فى انتظار إجابتى فقلت :

لا أعرف أى شخص وماذا عن الكولونيل ؟ .. أعتقد أن أى شخص سيتولى أمر النقود فإنه لابد سيلقى نفس المصير الذى لاقاه العجوز جيسفورد .

- لا أعتقد ذلك فلقد فهمنا الآن كل شىء وتداركنا الأمر .

ثم أضاف فى محاولة منه لمزيد من التأكيد والاطمئنان كما يفعل أمثاله دائماً : لن نستخدم حساب أحد أكثر من ستة أشهر.

ظل ينظر نحوى بنصف ابتسامة وقد داهمه شعور بالرضا لعدم قدرتى على الإفلات منه لكننى قلت بطريقة عبثية : أنت لا تفكر فىّ بالطبع !

فهم طريقتى العبثية هذه على أنها محاولة أخرى فى المراوغة مما جعلنى أشعر كما لو أننى أخفى شيئاً ولكن أى شيء ؟ .. إننى حقيقة لا أملك نقوداً ولا تأتينى أموال من الخارج ولا شيء فى البنك سوى فائض قليل لا أستطيع به مواجهة الديون .

ضحكنا أخيراً لكننى أدركت بسهولة ما كان وراء ضحكاته .. لقد كان هدفه باقياً ولم يكن الضحك سوى وسيلة .

قال : آه .. استمرى يا ليز .

أخبرته أنه لابد مجنون فكل الذين أعرفهم لا يملكون شيئاً كما أننى خارج تلك الدائرة من الناس الذين يقصدهم منذ زمن بعيد لكن كل ما قلته بدا له بلا معنى رغم أننى لم أتفوه سوى بالحقيقة .

واصلنا حديثنا بشكل مجرد لكن كلانا كان يفهم الآخر ولم يتوقف لوقا عن مداعباته وتملقه وصوته الخفيض الذى يوحى برغبته الجنسية .

قلت : سأفكر بالأمر وإذا وجدت شخصاً ما سأخبرك .

أخبرنى ببعض التفاصيل الأخرى القليلة وأثناء ذلك كنت

أفكر بجدية ففقدت السيطرة على أعصابى شعرت بنفس الشيء الذى يجتاحنى عندما تعترينى رغبة جنسية .. لقد تذكرت حساب جدتى .. إن لديها أرباحاً تدخل فى حسابها ولدىّ توكيل منها وأخشى أن يعزف لوقا بطريقة ما وعندئذ عرفت أننى لم أقل الحقيقة كاملة لأنه بمقدورى أن أفعل شيئاً ما ولأن هناك ما أخفيه الآن .. انتابنى إحساس أنه - بطريقة ما- كان يعرف منذ البداية أننى أملك حلاً .. ربما هو إحساس الأسود الدائم بقوة الأبيض التى قد تتمثل أحياناً فيما يرثه من حلّى ومجوهرات .

قلت له دون الإشارة لشىء : لا أستطيع أن أعدك بشىء لكننى قد أتذكر شخصاً ما رغم أننى أشك فى ذلك .

شعر بالضيق وبدا كالطير حين ينقض على البعوض فاعترض قائلاً : إنه لأمر مدهش .. إن أيادينا مقيدة .. إن النقود هناك فى لندن وها نحن منذ ثمانية شهور لا نستطيع الذهاب إلى هناك .. إننا مقيدون .

- سأتدبر الأمر وسوف أخبرك .

- هل ستخبريننى ؟

قلت : نعم، سوف نبقى على اتصال .

كنا نكرر دائماً أننا سنكون على إتصال كلما جاء لزيارتى وأحياناً كان يمضى وقت طويل دون تحقيق ذلك لكنه هذه المرة سوف يعود بالتأكيد وعندئذ سأخبره بعدم عثورى على أى شخص ولن أنسى أن أقدم له أسفى الشديد .

قال : غداً مساء ؟

ضحكت من نفاد صبره وأجبت : لا أعتقد فإننى أريد فرصة لأفكر.

قال بمودة : وهو كذلك، فليكن الثلاثاء أو الأربعاء على الأكثر فأنا - كما تعرفين - يجب أن أعود ولا أستطيع البقاء هنا مدة طويلة .

ظل ينظر إلىّ بطريقة عريس معجب بنفسه كما لو أننى قمت ببعض حركات الإغراء فانجذب نحوى.

تقدم نحوى وشدنى بيده من فوق الأريكة ثم قال : من الأفضل أن أنصرف لكى تنامى .

كنت أشعر بالبرد وأطوى ذراعىّ حول جسدى فسألنى : ماذا ستفعلين الآن ؟

ثم تنقل بنظراته فى الحجرة مرة أخرى وأضاف : هل ستكلمين صديقك فى التليفون ؟

نظرك إليه وابتسمت : إنه نائم الآن ومنذ فترة طويلة .

توجهنا نحو الباب ونحن نتحدث بهدوء وعندما فتحت الباب كان الضوء لا يزال منبعثاً من خلف زجاج باب الشقة المقابلة فأشرت له بالوداع وكدت أن أضحك حين سمعت نعل حذائه يطقطق لكنه قطب عن جبينه وفى محاولة للتعبير عن أسفه وضع كف يده فوق مؤخرتى لحظة قصيرة وكأنه يقول : ادخلى .



الفصل السابع

وهكذا ذهب أورفيوس (*) بسترته الحديثة عائداً إلى مجموعته الكبيرة التى تنتظره في مكانٍ ما خارج المدينة، وقد كان شيئًا يبعث على الراحة نوعاً ما أن يترك خلفه يوريديس الشاحبة وأسرارها القديمة وظلال حياتها المؤمن عليها .

كان جراهام قد علمنى عدم المخاطرةِ وكانت كل الأشياء فى هذا الوقت من الليل تبدو وكأن رياحًا عاتية قد عصفت بها فوقفت فوق أرض الشقة الفارغة لا أدرى إلى أين وإلى أى شخص يمكننى الذهاب .

تفتحت براعم الزهور وكانت هى الشىء الوحيد الذى يتنفس فى الحجرة غير أنها ستموت أيضاً مع حلول يوم الاثنين .. وضعت وجهى فى مواجهة زهور اللبن الثلجية الباردة بحركة نصف مسرحية .

(*) أورفيوس : Orpheus : فى الأسطورة الإغريقية هو موسيقى تبع زوجته يوريديس إلى مثوى الأموات وحين أثارت ألحانه إعجاب بلوتو أجاز له أن يخرجها من ذلك المثوى شريطة ألا ينظر خلفه لكنه فعل فى اللحظة الأخيرة ففقدها .
(المترجم)

فكرت فى الخروج والذهاب إلى أحد تلك النوادى عند حافة التل حيث يمكننى مقابلة بعض الناس الذين أعرفهم والذين اعتادوا على ارتياد هذه الأماكن فى ليالى السبت كما يحلو لى أن أفعل أحياناً عندما يعود جراهام لبيته.. كنت أرتدى معطفى وأضع أحمر الشفاه وأتوجه لأحد تلك الأماكن الصاخبة المظلمة التى لم يدخلها أبداً حيث يتطلع الرجال الألمان والإيطاليون إلى حياة الشارع فى أوربا، وحيث يمارس شباب جنوب إفريقيا الأبيض مع فتياتهم لوناً من ألوان الحياة الرخيصة المتواضعة كما توجد العاهرات السوداوات عند جانب الطريق وأولئك القوادون الذين يحومون حول المكان بحثاً عن الراغبين.

داخل بعض هذه الأماكن يعزف بعض الشباب على القيثارة وعندما يبدأون بأغنية «سوف ننتصر» ينضم إليهم الجميع ويشاركونهم الغناء كما يحدث مع أغنية «حبيبتى ترقد فوق المحيط».

كان ينبغى أن أصطحب جراهام إلى تلك الأماكن ذات مرة لكننى رأيت ذلك اعتداءً على حياتى الخاصة.

تركت كل شىء فى الحجرة كما هو.. شرائح البصل المتجمدة فى الأطباق، فوطة المائدة التى وقعت على الأرض عندما استدار لوقا بعيداً عن المائدة، قطع الجبن لكى تتسلق إليها الفئران وذلك القرد الراقد فوق الأريكة.. إن سامسون سينظف كل شىء غداً فى مقابل شلنين ونصف إضافية وسيزيل المخلفات داخل علبة المربى القديمة.

دهنت وجهى بالكريم مثلما أفعل كل ليلة بنفس العناية والاهتمام اللذين ينظف بهما الرجل بندقيته بعد استخدامها ثم استلقيت فوق السرير فى الظلام استعداداً للنوم وقلت لنفسي: لعله يتحدث معهم الآن باللغة التى لا أفهمها مستخدما علامات التعجب ولحظات التوقف من أجل التشديد على اللفظ .. لابد أنه الآن يحكى لهم عن وجود امرأة بيضاء سوف تقوم بالعملية غير أن ذلك هراء إذ لا يوجد سبيل لمعرفة شيء عن حساب جدتى .. لقد ذهب لوقا وسوف يعود فى خلال ثلاثة أو أربعة أشهر وحينئذ سيبدو الأمر كما لو أن كل شيء وجد طريقه للحل، فالأفارقة - بحكم فطرتهم - يتمتعون باللباقة فى مثل هذه الأمور .

كان لوقا يعرف أن كل ما قلته عن محاولة التفكير فى شخص ما وإعطائى مهلة من الوقت ليس إلا وسيلة لحفظ ماء الوجه بدلاً من الرفض .. إنه يعرف ذلك وينبغى أن يعرفه جيداً ولابد أنه فى المرة القادمة سيطلب منى شيئاً آخر قد يكون خمسة جنيهات مرة أخرى وربما تكون وجبة من الطعام وعندئذ لن يستطيع تكرار ما طلبه فى المرة السابقة .

كانت الأضواء الأمامية لإحدى السيارات تتسلل ببطء داخل الحجرة وكأنها فراشة شاحبة فاعتدلت لمتابعتها لكن الظلام عاد مرة أخرى غير أن ضوءاً آخر قد يكون صادراً من مصباح الشارع رسم لوحة متمايلة كأنها ظل شجرة ما فوق سطح المياه، لكن مياه البحر ثقيلة ومظلمة ولا يوجد ضوء تحت الماء حيث يرقد

ماكس فى الأعماق .. لقد اختار ماكس بنفسه الذهاب إلى الأعماق وكان ذلك هو اعتقاده الأخير .. إنهم يحاولون الآن استرداد الحقيبة المليئة بالأوراق والمستندات لكن الصحيفة فى طبعتها الأخيرة المليئة بأخبار رواد الفضاء لم تذكر شيئًا عن ماكس .

يجب أن أحتفظ بالصفحة الأولى بما فيها من صور لكى أرسلها إلى بوبو وليتنى أتذكر ذلك فى الصباح .

كنت أجهل الوقت لكن كثافة الظلام وطبيعة الهدوء فى ذلك الوقت كانتا توحيان باقتراب الصباح ورغم ذهابى للنوم فى وقت متأخر إلا أننى بدوت وكأننى مستيقظة من نوم عميق وطويل وكنت أسمع بوضوح طرقعات عربات القطار القادمة من مخزن السكك الحديدية على بعد ميلين .. لم أتوقف عن التفكير بعمق وجدية منذ اللحظة التى استيقظت فيها وكانت قدراتى يقظة تمامًا مثل حساسية سمعى وكأن شيئاً قد ترسب فى عقلى أثناء النوم .. كانت عضلاتى مشدودة جداً فرغبت فى التحرك لكن قد تثمر سحابة من الغيم كتلك التى تحدثها عاصفة الثلج فوق مكتب بوبو .. لم أكن أدرى شيئًا عن الوضع الذى أرقد فيه وكنت مشرقة وواضحة وضوح السمكة داخل طاسة ناصعة .

كان الرجل يسير فى الفضاء متنقلاً من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلنطى فى عشرين دقيقة فى نفس الوقت الذى غرق فيه ماكس ولكن لماذا الصعود إلى القمر ؟ أهو الحنين القديم

للخلود المشابه لكل رغباتنا فى التفوق وقهر العجز الإنسانى ؟ !
.. ربما .. غير أن الليلة بدون قمر وإلا لما أصبحت الحجرة مظلمة هكذا .. إننا نعتقد بوصولنا إلى القمر فى التفوق على حدود حياتنا ، أى التفوق على الموت مثلما نحاول أن نتسيد البيئة لكى نبقى على قيد الحياة لكنها سيادة خادعة لا تتعدى زيادة قليلة فى عمر الإنسان كما يحدث مع جدتى العجوز باستخدام الأدوية .. لقد تعلمنا كيفية أن نبقى أحياء حتى يحين موعد الموت .

يمكن للإنسان النزول بعد الحب أو الصعود بعد القمر وإذا ما حقق شيئًا خارج نطاق بيئتنا الطبيعية أفلا يصبح معقولاً أنه وصل إلى ماوراء حقيقة الموت ؟ وألا يبدو وصول أولئك الرجال للقمر تصوراً مسبقًا للسيادة ؟ .. إنهم هناك على قيد الحياة .. مشهد للعمليات هام ودال على معنى ونحن ندعو ذلك اللا شىء فوقنا بالسماء التى هى سقف بيئتنا ، وجزء من ترابنا وكينونتنا وشاهد على لحظاتنا التى تبلغ سبعة وثمانين عاماً مثل لحظات جدتى أو واحداً وثلاثين عاماً مثل لحظات ماكس الذى كان سيبلغ الثانية والثلاثين فى الشهر القادم .. ذلك اللاشىء الذى رأيته بنفسى من الطائرة فيما وراء طبقة السحاب التى تغلف الجو هو ما ندعوه بالفضاء .. إن رائد الفضاء الآن قادر على اجتياز السماء والدخول فى عالم الفضاء وإذا كان الله هو أساس الأبدية أفلا يكون هذا الرجل قريباً من الله هذه الليلة ؟ أفلا يكون أكثر قرباً من ماكس الذى يحاول الحب فى

قاع البحر ؟ . . إن الديانات رغم كل شيء تعلمنا أن مملكة الله ومملكة الروح ليست من هذا العالم أما الطبيعة البشرية فهى من هذا العالم والموت من هذا العالم أيضاً غير أن الموت يقودنا إلى الحياة الأبدية . .

إن الفضاء أيضاً ليس من هذا العالم وليس المرء في حاجة لأن يموت كى يدخل الحياة الأبدية وإلا فليس مدهشاً وجود ذلك الاتصال العميق بين خلود الله ولا محدودية الفضاء ؟ . . إن بعض العلماء يحاولون فى الحقيقة إثبات أنهما نفس الشيء لكن كل الناس تقريباً تعتقد فى وجود شيء ما كما تعلموا من الأساطير الدينية ومن خلال اندفاعهم الثورى بحثًا عن أشكال تفوق طبيعة الحياة .

إن ما يحدث هناك في الأعالى قد يكون تعبيراً روحيًا لأعمارنا لاندرى عنه شيئًا واكتشاف الفضاء ليس منهجاً وإنما هو دين جديد . . بعيداً عن غشاء الكرة الأرضية . . هناك بعيداً عن هذا العالم . . النزول إلى قاع البحر . . اللانهائية . . الأبدية .

هل استطاع أى شكل من أشكال العبادة التى نمارسها منذ زمن طويل أن يعبر بشكل أكثر إلحاحًا عن الحنين إلى الحياة بعد الموت أو الحنين إلى الله ؟

لابد أن النوم غلبنى لحظة . . أوه . . إن لوقا سيعود فلا يوجد سبب لعدم عودته ودفتر الشيكات موجود فى الدرج الشمالى من دولاب ملابسى على بعد ثلاثة أقدام وبمقدورى استخدامه لأننى أملك توكيلاً عن جدتى لكن إجراءات تحويل النقد

الأجنبى تأخذ وقتاً بعد استيفاء بيانات الاستمارة والتحرى عن المصدر وطبيعة رأس المال وأشياء أخرى كثيرة حدثت معى مرة أو مرتين لا أستطيع أن أتذكرها .. لابد أن لوقا يعرف كل شيء فقد أخبرنى أننا لسنا فى حاجة لأى شيء سوى حساب فى البنك مثلما حدث مع الكولونيل جيسفورد ولابد أيضاً أن جراهام يعرف جيداً كيفية التعامل مع البنوك لكننى لا أستطيع أن أسأله أبداً بخصوص هذا الأمر رغم أنه هو الذى قام بإجراءات جواز سفرى فى العام الماضى بعد أن كنت ممنوعة من استخراجه لمدة سنوات .. إن جراهام محدد فى علاقاته ويمكنه القول ببساطة : امرأة فى وضعك !.

كانت هناك دائماً بعض الإجراءات التى أجهلها وبعض الوعود التى لا أستطيع الوفاء بها ولكن لو أنها ستة أشهر فقط كما قال لوقا لاختلف الأمر فحساب السيدة العجوز فى البنك ولا أعتقد أن أحداً سيفكر به كما أن جدتى على وشك الموت ولا تستطيع أن تدرك ما يحدث .. إننى أيضاً أحمل توقيعاً باسم فان دن ساندت ولكن لماذا ينبغى أن أفعل مثل هذا الشيء ؟

يبدو لى أن الإجابة ببساطة هى حساب البنك ولا أجد تفسيراً لذلك .. إنه فقط حساب البنك وذلك شيء جيد بما يكفى .. إننى فعلاً غير قادرة على تفسير أى شيء تماماً كما يحدث مع بوبو حين يجيب على أحد الأسئلة قائلاً فى كلمة واحدة : لأن .

هل سأعمل بالسياسة مرة أخرى ؟ وأى نوع من العمل السياسى سأقوم به إذا حدث ذلك ؟.. لا .. لا أعتقد فلست على استعداد لمضايقة نفسى بمثل هذا العمل الذى يعد عملاً فى غير محله .

إن لوقا يعرف ما يريد ويعرف الشخص الذى يجب أن يلجأ إليه وهو بالطبع على صواب ، فالمرأة البيضاء المتعاطفة لا تملك ما تقدمه له سوى تلك الامتيازات وذلك الرصيد فى البنك .

سيعود لوقا بملابسه المليئة برائحة الدخان وقد يمارس الحب معى فور عودته أو فى إحدى المرات التالية كما توحى بذلك الصفقة لكنه لن يرد القروض التى أخذها منى إذ أنه لا يملك شيئاً يقدمه لى سوى الغرور والأكاذيب .

قلت لنفسى : من الأفضل إذن أن أوافق .. يجب أن أمنحه فرصة مضاجعتى وعندئذ لن يصبح أحدنا مديناً للآخر ، وعلى أية حال قد تكون هذه رغبتى .. لست أدرى غير أن ذلك سيكون أفضل شىء حصلت عليه كما أنه شىء أريده الآن فهل يستطيع أحد ألا يسميه حباً ؟

إن المرء لا يستطيع أن يفعل أكثر من تقديم ما يملك !!

كنت أعتقد فى قدرتى على سماع النجوم وهى تتجول فى مداراتها وذلك الطنين الهائل النابض بالحياة القادم من الأعالى والذى يدعونه بموسيقى الكرة الأرضية لكنه الليلة يبدو لى وكأنه رحلة الأمريكان إلى الفضاء وصوت محاولاتهم فى اكتشاف أكبر دائرة ممكنة .

ظللت مستيقظة فوق السرير وقتًا طويلاً وكان جسدى ممدداً .. حاولت أن أعرف الوقت لكن ساعة السفر الحمراء الكبيرة التى أهدانى إياها بوبو فقدت صلاحيتها ولم تكن هناك ساعة أخرى فى الحجرة غير أن دقات قلبى البطيئة كانت ترن فى أذنى كالساعة وكأنها تخبرنى بأننى مازلت خائفة وأننى مازلت أحيا .

